كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

من أسرار البلاغة النبوية في أحاديث الشراكة المجتمعية

إعداد

د/ إيمان سعيد حسن موسى
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية
ورئيس القسم

(العدد الأربعون)
(إصدار أكتوبر ـ الجزء الثاني)
(١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

من أسرار البلاغة النبوية في أحاديث الشراكة المجتمعية"

إيمان سعيد حسن موسى
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر الإسكندرية، مصر.
البريد الإلكتروني:emansaid_islam.alx@azhar.edu.eg

الملخص:
هذا بحث بعنوان "من أسرار البلاغة النبوية في أحاديث الشراكة المجتمعية" يبرز مدى فضل الله – تعالى– وامتنانه على عباده، ورحمته بهم، وكذا يسر الإسلام، وسماحة تعاليمه، وبيان كيف أفرغت مظاهر التيسير في قوالب بلاغية أخذت بمجامع القلوب والعقول، وأعانت على تأديتها والعمل بها إذا دعت الحاجة إليها، وبيان فضلها، وقد وقف هذا البحث – بما لا يدع مجالًا للشك من خلال تحليل نماذج من الأحاديث النبوية– على تمكن البيان النبوي من توظيف الألفاظ في خدمة المعاني ، وتوضيح الأفكار، كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان .

الكلمات المفتاحية: **أسرار،البلاغة، المجتمعية، الشراكة، أحاديث نبوية.**

Among the secrets prophetic rhetoric in the hadiths of communite partnership

Iman Saeed Hassan Musa

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Alexandria, Al-Azhar University, Egypt

Email: emansaid_islam.alx@azhar.edu.eg

Abstract

This research entitled "One of the Secrets of Prophetic Rhetoric in the Conversations of Community Partnership" highlights the extent of God's grace and gratitude to His servants, and His mercy towards them, as well as the ease and tolerance of Islam and its teachings, and an explanation of how the manifestations of facilitation were emptied into rhetorical templates that took the collectives of hearts and minds, and helped them to perform And working with it if the need arises, and to clarify its merit, and this research has stopped – beyond any doubt by analyzing samples of the hadiths of the Prophet – on the ability of the prophetic statement to employ words in the service of meanings, and to clarify ideas, as if between words and their meanings in all his eloquence is a measure And balance.

keywords: **Secrets , Rhetoric , Community , Partnership**

مـــقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين، كلف عباده المسلمين بما يستطيعون وما يطيقون، ورفع عنهم ما هم عنه يعجزون، والصلاة والسلام على الهادي البشير، نبي الرأفة والرحمة، والسماحة والتيسير، سيدنا محمد بن عبد الله القائل: « يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[1] وعلى آله، وصحبه ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.... وبعد

يعد علم البلاغة من أرفع العلوم، وأنفع المآرب، فهو مرتقى علوم اللغة، وأجلها، وأشرفها، إذ إن مرتبة الكلام الأولى تبدأ بألفاظ تدل على معانيها المحددة، ثم تتصاعد حتى تصل الكلمة الفصيحة، والعبارة البليغة، فإذا كانت اللغة تعبر عن الفك، فالبلاغة هي الفكر كله، كما تعد دراسة الحديث النبوي منبعًا أصيلًا، ومنهلًا عذبًا للدراسات البلاغية، لما تتضمنه السنة النبوية المطهرة من نصوص تعد غاية وذروة في البيان النبوي، ترتقي وتسمو مكتسبة جمالها المعنوي والحسي بوضعها معبرة عن رسالة سماوية، فهي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي، كونها شارحة لمقاصد القرآن الكريم، ومفصلة لمجمله، ومخصصة لعمومه، ومقيدة لمطلقه، دالة على منسوخه، وما من شك في أن الإسلام دين يسر، ورأفة، ذلك أن الله –عز وجل– بعث نبيه الكريم -ﷺ- رحمة للعالمين.

فجاءت تعاليمه ميسرة، تراعي قدرة البشر على تحملها، فما من تكليف إلا شرع له الإسلام تيسيرًا في كيفية أدائه، حتى يستطيع المسلم أداءه، وإذا نظرنا إلى سنة النبي الكريم -ﷺ- ، واستعرضناها في بيان يسر الإسلام سنجد أنفسنا أمام كثير من الشواهد، والنصوص النبوية، التي توضح هذا المعنى، فمجالات التيسير

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا (٢٥/١)، حديث رقم (٦٩)، ط: دار طوق النجاة، أولى، ١٤٢٢هـ.

في الإسلام عديدة، كما أن توجيهاته -ﷺ- في هذا مما يصعب استقصاؤه في مثل هذا المقام، فالتيسير، والرفق، ومراعاة حقوق وأحوال الناس ديدنه -ﷺ- ، ومن ثم كانت هذه الدراسة "من أسرار البلاغة النبوية في أحاديث الشراكة المجتمعية".

وكان الهدف من هذه الدراسة إبراز بلاغة الرسول -ﷺ- في بيان يسر الإسلام، وسماحة تعاليمه في هذا الشأن، وتكمن أهمية الدراسة في الكشف عن الوسائل التعبيرية المتعددة التي استخدمها النبي -ﷺ- في أحاديث هذه الدراسة، لإبراز أهمية التيسير ومدى قيمته، وحث المسلمين على الشراكة والتعاون بينهم حتى نصل لمجتمع آمن متعاون متضامن، كما أنها توضح جانبًا من رحمة الله -عز وجل- بعباده، وامتنانه عليهم في تكليفه إياهم ما يطيقون، وكذا حب النبي -ﷺ- لأمته، وشدة حرصه عليهم، ورأفته بهم، وقد اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بفعل الخير والشراكة في كل شيء يدعو لمجتمع آمن مطمئن، ففي القرآن الكريم نصوص كثيرة تحث عليه، وكذلك السنة المطهرة، وقد تميز الرسول الكريم -ﷺ- بالفصاحة والبلاغة بقدر لا يمكن معه أن يماثله أحد، ولا يمكن إغفاله فهذه: " هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها، وحُسِرت العقول دون غاياتها... كأنها مصنوعة، لم يتكلف لها، وهي على السهولة بعيدة منوعة، ... وألفاظ البلاغة النبوية ألفاظ يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه... وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره -ﷺ- [1].

ولقد نهجت في هذا البحث المنهج التحليلي التأملي، وذلك بالكشف عن دقائق البلاغة، وتذوق الأساليب وبيان نوعها وسرها البلاغي، وقد أوضحت الأسرار البلاغية

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص(٢٧٩)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

في الحديث بحيث تتكامل، وتتألف في نسق بارع، محافظة فيه على الترابط بين ألفاظ الحديث، كل هذا عن طريق النظم .

وفي أثناء بحثي في هذا الأمر وجدت بعض الدراسات في هذا المجال منها : بحث ماجستير بعنوان (العمل التطوعي في السنة النبوية دراسة موضوعية) إعداد زندة محمد زينو، إشراف الأستاذ الدكتور/ نافذ حسين حماد، ورسالة ماجستير بعنوان : (الأحاديث الواردة في حقوق العمال ومسئولياتهم) جمع وتعليق دكتور /خليل الحية ، وبحث بعنوان: (من بلاغة التشبيه التمثيلي في الحديث الشريف) إعداد / رمضان أوزمن، مجلة البحوث العلمية الشرفية ، أغسطس ٢٠١٨م ، وبحث بعنوان: (إدارة الشراكة المجتمعية بين مؤسسات المجتمع والتربية الخاصة) د/ نهلة إبراهيم السبيعي، المملكة العربية السعودية ، ١٤٤١هـ.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

أما المقدمة: فقد عرضت فيها أهمية الموضوع، والمنهج الذي سرت عليه في هذه الدراسة.

وأما التمهيد: ففيه كلمة يسيرة حول مفهوم الشراكة العامة، وأهميتها في الكتاب والسنة.

نماذج من أحاديث الشراكة المجتمعية في السنة النبوية، وتشتمل على ثلاثة مباحث:

١- المبحث الأول: من أسرار البلاغة النبوية في شراكة استقامة أحوال المجتمع.

٢- المبحث الثاني: من أسرار البلاغية النبوية في شراكة المجالس وحقوق الجالسين فيها.

٣- المبحث الثالث: من أسرار البلاغة النبوية في الشراكة في المصلحة العامة، ورعاية العدل، واحترام الحق في إدارة شئون الناس، وسياسة مصالحهم.

وأعقبت ذلك بالخاتمة التي اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، تلاها فهرس المصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

التمهيد

مفهوم الشراكة العامة لغة واصطلاحاً:

التعريف في اللغة:

يقال: شَرَكهُ في الأمر يَشْرُكُهُ: إذا دخل معه فيه، وأشرك فلانٌ فلانًا في البيع إذا أدخله مع نفسه فيه[١].

وفي المعجم الوسيط "الشركة" عقد بين اثنين أو أكثر للقيام بعمل مشترك[٢]، وقيل هي : علاقة تقوم على التعاون وتبادل المصالح في شتى المجالات بين كيانين[٣] .

ولفظ الشراكة لفظ مستحدث لم يرد في المعاجم القديمة، ويمكن تصحيحه بجعله مصدرًا للفعل "شرك" بعد تحويله إلى وزن "فُعْل" اعتمادًا على إجازة مجمع اللغة المصري ما يُستحدث من المصادر على وزن الفَعَالة من كل فعل ثلاثي بتحويله إلى باب فَعُل بضم العين إذا احتمل دلالة الثبوت والاستمرار[٤].

تعريف الشراكة في الاصطلاح:

الشراكة المجتمعية مركبة من كلمتين الأولى الشراكة، وهي من شاركت فلاناً في الأمر

---

(١) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري (١٣/١٠) الناشر : دار الكتب العلمية ، ط ٢٠٠٤.

(٢) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية (٤٨٠/١) الناشر : مكتبة الشروق الدولية ، ط: ٢٠١٤.

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة / دأحمد مختار عمر ، المجلد الأول ، ج /٢، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ٢٠٠٨/١٤٢٩، ص: ١١٩٥.

(٤) معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي ، أحمد مختار عمر (٤٦٧/١) الناشر : عالم الكتب القاهرة ، ط: ٢٠٠٨.

شركاً وشركةً أي: جعلت له نصيبًا منه فهو شريك، وأشركه في الأمر أدخله فيه وشاركه كان شريكه، والثانية المجتمعية : من جمع الشيءعن تفرقه، يجمعه جمعاً وجمعه وأجمعه فاجتمع[1] ، وعليه فالشراكة المجتمعية عبارة عن الجهود التعاونية المشتركة بين مؤسسات المجتمع وأفراده مما يحقق جهداً تكاملياً في الوقاية من الجريمة[2] .

وهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله – سبحانه وتعالى–: ﴿ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢٤]، والخلطاء هم الشركاء.

ومن السنة ما روى أن البراء بن عازب وزيد بن أرقم كانا شريكين فاشتريا فضة بنقد ونسيئة، فبلغ ذلك رسول الله -ﷺ- «فأمرهما أن ما كان بنقد فأجيزوه وما كان نسيئة فردوه»[3].

وروي عن النبي -ﷺ- أنه قال: «يقول الله – عز وجل–: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه، خرجت من بينهما»[4].

(١) لسان العرب / ابن منظور ، مادة [شرك] ، و[جمع].

(٢) دور الشراكة المجتمعية في تحقيق التوعية الأمنية من وجهة نظر رجال الأمن والأكاديمين بالعاصمة المقدسة / عطية حامد عطية محفوظ الغامدي / رسالة ماجستير /كلية التربية / مكة المكرمة، ص ٩/ ١٤٣٣هـ

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٢٤٩٧)، باب الاشتراك في الذهب والفضة وما يكون فيه الصرف.

(٤) سنن أبو داود (٣٣٨٣)، وأخرجه الدار قطني (٣٥/١٣٩/٣)، والحاكم (٥٢/٢)، والبيهقي (٧٨/٦).

وروي عن النبي -ﷺ- أنه قال: « يد الله مع الشريكين مالم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما»[1].

ويتضح من خلال التعريفات السابقة للشراكة في اللغة والاصطلاح: أن مفهومها يدور حول التعاون، والتضامن، وتقديم العون والمحبة إلى فرد أو مجموعة أفراد، والغرض من ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى.

أهمية الشراكة المجتمعية:

الشراكة من العادات الاجتماعية العظيمة، والأخلاق الإسلامية الرفيعة، حيث يبذل الفرد من جهده المستطاع خدمة لغيره في المجتمع فردًا كان أو أفرادًا، وهو بذلك يعكس قيمة الوعي الجماعي عند الفرد، أي الوعي بانتمائه للجماعة وارتباطه بها، حيث يعيش الفرد في جماعة لا يستغنى عنها، فيقدم ما يستطيع خدمة للفرد، وللجماعة في الوقت نفسه، ولقد حث الإسلام على التعاون والشراكة، فقد كانت سيرة النبي -ﷺ- العملية، حيث كان يبادر بتقديم المساعدة والتعاون في العديد من الأمور والمجالات، كما ضرب الصحابة أروع الأمثلة في المشاركة والتعاون وسائر الصفات الإيجابية، ومن ذلك اشتراكهم في بناء المسجد النبوي، وحفر الخندق وغيرها من الصور التي تبين الحب والود بينهم.

إن خلق المشاركة والتعاون له أهمية وآثار عظيمة على الفرد والمجتمع المسلم منها:

- حصول الفرد على محبة الله ورضوانه ومحبة الناس وأنسهم.

- قوة المجتمع وتماسكه وترابطه، حيث يقوى نسيج المجتمع بأبنائه المتحابين.

(١) رواه أبو داود (١٧٤٨).

- تشجيع القيم الإيجابية والمساعدة في نشرها، وتشجيع مبدأ القدوة الحسنة، حيث إن مبادرة الكبار في هذا الصدد، تجعلهم قدوة لغيرهم من الأجيال القادمة.

"ومن هذا المنطلق العقدي، أبصر المسلمون طريقهم، فعاملوا الناس في عصور سيادتهم وتمكنهم معاملة بالغة السمو في المستوى الإنساني... ففي كل مجال تجد إنسانيات الإسلام متألقة... في مجال النظرة للكون، وفي مجال النظرة لكل الإنسانية، وفي التعامل مع أهل الذمة، وفي الحروب... وفي سائر التشريعات، ليس بالقول فقط، بل بالحب والفضل والإيثار مع العدل تتحقق الإنسانيات اللائقة بدين الإنسانية"(١).

إن الإسلام دين الإخاء والمودة والتكافل، القوي فيه يتكفل بالضعيف، والغني متكفل بالفقير، والقادر يعين غير القادر، يقول أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- « بينما نحن في سفر مع النبي -ﷺ- إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله -ﷺ- : "من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له"، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»(٢).

(١) بتصرف من إنسانيات الإسلام مبادئ شرعية وتجارب واقعية، عبد الحليم عويس، الطبعة الأولى، ١٤٢٧،٢٠٠٦، مكتبة العبيكان، الرياض. - العليا، ، ص(٥، ٦).

(٢) صحيح مسلم (١٧٢٨) كتاب الجهاد-باب آداب السفر.

نماذج من أحاديث الشراكة المجتمعية في السنة النبوية

المبحث الأول
من أسرار البلاغة النبوية في شراكة استقامة أحوال المجتمع

النموذج الأول

روى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري –رحمه الله– في كتاب الشركة من صحيحه: "باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه".

حدثنا نعيم حدثنا زكريا قال: سمعت عامرًا يقول: سمعت النعمان بن بشير – رضي الله عنهما– عن النبي -ﷺ- قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا»(١).

المعنى العام للحديث والتحليل البلاغي :

يتحدث الرسول الكريم عن الحرية الفردية، وضرورة كونها محددة بمصلحة الأمة، حيث حرص الإسلام على ضبط المجتمع وحمايته من الانحراف، وذلك من خلال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أشار إليها حديثنا بجلاء، وأهمية التكافل بين الفرد والجماعة، فالإسلام يعطي عناية بالغة لهذا التكافل، فكل

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري – رحمه الله– في موضعين من صحيحه: الأول باللفظ المذكور أعلاه في "كتاب الشركة – باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه"، حديث رقم (٢٤٩٣)، ثم رواه في: "كتاب الشهادات – باب القرعة في المشكلات" حديث رقم (٢٦٨٦) انظر صحيح البخاري – بشرح ابن بطال، أبي الحسن بن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال القرطبي، ج (٧) ص (١٢)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ط (٢)، سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي الحديث رقم (٢١٧٣) ص (٤٩١)، تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، ٦٢ باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، ص(٣٩٤).

فرد مكلف بحسن عمله، وإحسان العمل ثمرته عائدة للجماعة في النهاية، فالحديث: «مثل في غاية الجمال والدقة يصور فيه الرسول الكريم المجتمع البشري بما فيه من أخيار وأشرار ومتقين وفجار بركاب سفينة في بحر تشق طريقها وسط الأمواج المتلاطمة والأعاصير الهائجة، وقد انقسم الركاب فيها بالقرعة إلى قسمين: قسم في أعلى السفينة يتمتعون بجمال الماء الصافية والطبيعة الخلابة من الحياة، وقسم في أسفل السفينة محرمون من هذه المناظر، ولا ينعمون بما ينعم به إخوانهم من الطبقة العليا حتى الماء، فقد كانوا يجلبونه من الأعلى، ولما عانوا هذه المشقة، فكروا في وسيلة للراحة، وهي أن يثقبوا أسفل السفينة، وفي مكان خاص بهم، لئلا يتعبوا أنفسهم، ولا يزعجوا جيرانهم: (فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا.... جميعًا)، وهو تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحيدها بإيذاء التفكير الفردي، الذي يأخذ بظاهر المعاني النظرية، ولا يفكر في أثار الوقائع العلمية، ورسم دقيق لواجب الفرد والجماعة نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون بين جميع الأفراد في هذا المجال واجب لمصلحة الجماعة»[1].

فهو «مثل يجسد سبيل النجاح والاستقرار والتقدم في المجتمع عن طريق التعاون بين كل مكوناته، وقيام كل بواجبه المنوط به، والتزام الجميع بالحدود الشرعية، والقوانين الوضعية المنظمة لبقائه، وأن الإخلال بذلك تكون نتيجته انهيار المجتمع، وهلاك أبنائه»[2].

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د/ محمد نعمان الأعظمي النحوي، ص(١٨٧، ١٨٨)، مكتبة العبيكان – الرياض، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

(٢) الاستقصاء في المثل النبوي دراسة بلاغية، د/ أحمد إبراهيم محمد علي، ص(١٣٠١)، المجلد الثاني، العدد الثامن والثلاثيون، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

فقوله -ﷺ- : «مثل القائم على حدود الله» يقصد به المدافعين عن حدود الله من العلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويغارون على دين الله، «ومثل الواقع فيها» وهو الذي ينتهك الحرمات، ويفعل الموبقات.

شبههما الرسول -ﷺ- بقوم استهموا على سفينة أي: اقترعوا[1] على سفينة لينظروا من يكون في أسفلها، ومن يكون في أعلاها، وخرجت السهام، فكان جماعة على سطح السفينة في أعلاها، وجماعة في أسفل السفينة تأخذ ما تريد من الماء، فلو أن من هم في أعلى السفينة تركوا من هم في أسفلها يخرقون السفينة لهلكوا جميعًا، ولكن يجب عليهم أن يضربوا على أيديهم، لتكتب النجاة للجميع.

وهذا المثل ضربه النبي -ﷺ- للقائمين على حدود الله ولمن يتعدون حدود الله -عز وجل-، فقد شبهت الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة، إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء، ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد، وهي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، وفي الحالة الثانية منتزعة من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم فيما يجب عليهم، وهو تشبيه معقول بمحسوس.

فلو أن القائمين على حدود الله -عز وجل- تركوا العابثين، ومن يرتكبون المعاصي، لكان في ذلك الفساد والإفساد وهلاك للجميع، ولكن يجب على القائمين

(١) تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، تح: د/ محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ط أولى، ٢٠٠٩م، مادة قرع.

على حدود الله -عز وجل- أن يقدموا النصح، وأن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة لينجو الجميع(١).

ولقد زاد هذا التشبيه المعنى المراد وضوحًا وجمالًا، إذ إنه شبه الأمر المعقول، وهو حال الناس في المجتمعات بأمر محسوس، وهو حال قوم ركبوا سفينة، وهو أمر يمكن إدراكه بالحس، ولا شك أن هذا أوعى لفهم المراد والتأثر به.

يقول الرافعي: « فهذا تمثيل لحالة طائفة في "الأسفل" تعمل لرحمة من هم في "الأعلى" عاطفة شريفة، ولكنها سافلة، وحمية ملتهبة، ولكنها باردة، ورحمة خالصة، ولكنها مهلكة، ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلاغة الاجتماعية، والغفلة الفلسفية لأناس هم عند أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة، فكأن النبي -ﷺ- يقول لهؤلاء: أنتم المصلحون إصلاحًا مخروقًا...»(٢).

«إن القانون في السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما تحكم على الأعمال الأخرى بل قبل وقوعه، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم، بل على الشروع فيه، بل على توجه النية إليه، فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة، ما دامت ملججة في بحرها، سائرة إلى غايتها، إذ كلمة "الخرق" لا تحمل في السفينة معناها الأرضي، وهناك لفظة "أصغر خرق" ليس لها إلا معنى وهو "أوسع قبر"، ففكر في أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وانطلاقه

(١) عمدة القارئ (شرح صحيح البخاري) لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت (بدون)، ج(١٣)، ص(٣٦٥).

(٢) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، ج(٣)، ص(٨)، المكتبة العصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

فهو ههنا محدود على رغم أنفه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها في لغة البحر القبر والغرق والهلاك... [١]

وقد كان من تمام التدقيق في هذا المثل أن تتبع البيان النبوي صفة العمومية في اختياره لعناصر المشبه به، حيث كون من "الماء – السفينة – ركاب السفينة".

وهي أمور يدركها العامة والخاصة، يدركها من يعيش في الجزيرة العربية وخارجها فهي أمور عامة يخاطب بها الجميع.

« وقد نبه البلاغيون إلى أن صور التشبيه حينما تستمد من عناصر كونية أو نفسية عامة يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين، كالتشبيه بالشمس والبدر والجبال والأنهار... وما شابه ذلك مما هو شركة بين الناس والأمم يكون هذا الاستمداد من هذه العناصر أحفظ لبقائها وحيويتها، وتأثيرها في أجيال الناس والأمم»[٢].

فلو استمدت المشبهات بها في هذا الحديث من أمور غريبة أو مرهونة بزمان أو مكان معين لما كتب لها هذا البقاء ولما وجد لها هذا الأثر.

وقد نبه القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني إلى هذه الحقيقة متحدثًا عن التشبيه، مبينًا تفاوت إدراكه لاختلاف البيئات، وتباين الأزمنة، وافتراق العادات فقال: « قد يكون في هذا الباب ما تتسع له أمه، وتضيق عنه أخرى، ويسبق إليه قوم دون قوم، لعادة أو عهد، أو مشاهدة أو مراس، كتشبيه العربي الفتاة الحسناء بتريكة النعامة، ولعل في الأمم من لم يرها، وحمرة الخدود بالورد والتفاح، وكثير من

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد بن لطفي الصباغ، ص(٧١)، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

(٢) التصوير البياني، د/ محمد محمد أبو موسى، ص(١٥٨) وما بعدها بتصرف، مكتبة وهبة، ط(٣)، ١٩٩٣م.

الأعراب لم يعرفهما، وكأوصاف الفلاة، وفي الناس من لم يُصْحر، وسير الإبل، وكثير منهم لم يركب»[١].

وفي قول النبي الكريم « القائم على حدود الله » استعارة مكنية " حيث شبهت المعاصي بوهدة من الأرض محدودة بحدود وواضحة المعالم، حولها أناس يحرسونها ويزجون الناس عنها وعن الوقوع فيها، ثم حذف المشبه به وأتى بلازم من لوازمه، وهو قوله: "حدود" على سبيل الاستعارة المكنية، وأكد ذلك بقوله: «والواقع فيها»، وكأن هذه الهوة هوة سحيقة، يأوي إليها المخالفون، ويمنعهم مصلحو الأمة الذين يتولون حراستهم والدفاع عنهم، وفي هذا بيان لمدى أهمية ما يقوم به الآمرون بالمعروف، ومحاولاتهم في توفير الأمن والأمان للمجتمع.(٢)

والناظر في هذا الحديث الشريف يلمح خصوصية المطلع في الحديث الشريف التي تبرز ملمحًا من ملامح بلاغته -ﷺ- .

فقد استهل النبي الكريم حديثه بأساليب الإيضاح والتعليم (ضرب المثل)، ولم يستخدم النبي هذا اللون إلا لهدف أسمى، وهو إبراز المعاني في صورة محسوسة؛ ليكون التأثير بتلك الصورة أشد وأقوى من الأفكار المجردة، ولأهمية الأمور التي يدعو إليها النبي الكريم -ﷺ- نراه يؤثر الأسلوب الخبري، حيث يخبر الرسول فيه بحال الناس، ويشبههم براكبي السفينة، غير أن هذا الأسلوب قد خرج على خلاف مقتضى الظاهر، فليس المراد من الخبر الفائدة أو لازم الفائدة، وإنما الغرض هو الحث وتحريك الهمة نحو القيام بواجب الأمر والنهي.

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، ص(١٨٦) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) حديث مثل القائم على حدود الله دراسة بلاغية / د عبد الأخر حماد، ص: ١٠٤/١٢٢٤هـ/٢٠٠٣م

ففي هذا البيان النبوي الشريف، بلاغ للأمة جمعاء، فكلامه -ﷺ- ليس للآحاد، بل إنه للجماعات الإنسانية على مر الزمان، وقد آثر النبي الكريم الخطاب الإفرادي، مما يعكس جوهر النفس الرحيمة على الأمة، وتتجلى بلاغة الخروج على خلاف مقتضى الظاهر، في إشعار كل مخاطب أن الخطاب له وحده، فكأنه المقصود بالخطاب دون سواه وفي ذلك ما يجذب انتباهه، وفي ذلك من التأثير والإقناع ما لا يخفى.

ونلمح من كمال اختياره -ﷺ- للفظ المناسب في موضعه بحيث لا نرى في كلامه حرفًا مضطربًا ولا لفظة مستدعاة بمعناها أو مستكره عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى وتأتيًا لسره في الاستعمال..... [(١)].

هذا يبدوا جليًا في اختياراته -ﷺ- للألفاظ التي وصف بها السفينة وأصحابها، من ذلك قوله "القائم"، فالتعبير باسم الفاعل فيه دلالة على الثبوت والدوام مع الاستمرارية على ذلك الفعل والمواظبة عليه؛ وذلك لأن (أل) الجنسية إذا دخلت على اسم الفاعل أبعدته عن مشابهة الفعل، فلا يكون حقيقة في الحال ولا في غيره، وإنما هو تحقق الوصف في صاحبه، وإرادة حقيقته القائمة في الذهن[(٢)].

وآثر النبي هذه اللفظة "القائم" دون غيرها؛ وذلك لكونها مصورة ومعبرة عن مدى العناء والمشقة التي يتحملها القائم، والثابت على أوامر الله، المبتعد عن المنهيات بالرغم من وجود المغريات، فكونه ثابتًا هذا دليل على التزامه، لذا تم إضافتها للفظ الألوهية «القائم على حدود الله»، وفي هذا من اللذة والمتعة بالالتزام بكل ما أمر الله، وقد عدى "القائم" بـ"على"؛ للدلالة على الاستعلاء المستفاد من

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط(٨)، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ص(٣٢٥).

(٢) النحو الوافي لعباس حسن، ج(١)، ص(٤٢٥) وما بعدها، ط(١٥)، دار المعارف.

التزامه بحدود الله وقيامه بها، فناسب الالتزام الاستعلاء والبعد عن أي ريبة، بخلاف قوله: «والواقع فيها»؛ حيث عبر بحرف الجر "في" دليلًا على انغماسه فيها، ووقوعه في تلك الهوة السحيقة، فضلًا عن التعبير بالضمير "ها" بدلًا من الاسم الظاهر المضاف إلى لفظ الجلالة تأدبًا مع الذات العلية، وفي قوله: «حدود الله» عموم يشمل كل شيء يضمن للمجتمع أمنه واستقراره.

وقد أسهم الطباق بدور عظيم في بيان الهوة بين الحالين، "القائم، الواقع"؛ وذلك لمال له من قدرة على إبراز المعاني بوضعها بإزاء بعضها البعض، حتى يتمكن المتلقي من إدراك الموقف من جميع جوانبه، فيعمد على أيهما شاء، وهذا ما تحقق في الحديث الشريف حيث وضع النبي الصورة في موضع الطباق، فيختار كل واحد المصير الذي يؤول إليه، أيثبت على حدود الله؟ أم يقع في المنهيات؟

وقد كان لمجيئه هنا الأثر البين للمخاطبين؛ لأن الفرصة لا زالت سانحة أمامهم للاختيار، فإما أن يكونوا من الفائزين بمرضاة الله الثابتين القائمين على حدوده، وإما أن يكونوا من الخاسرين المنغمسين في المنهيات، وهذا ما أفاده الطباق فهو يساعد على توضيح المعاني بمواجهتها بنقيضها، فالنفوس تعجب، وتطرب حين يعرض عليها الشيء وضده، فالضد يظهر حسنه الضد.

كما كان للتنكير الدور الأبرز في الإشعار بالمعنى المراد في قوله: "قوم"؛ وذلك لإفادة العموم فهذه الأمور لا تقتصر على قوم دون قوم أو أمة دون أمة، بل يقصد بها كل الأمم والأقوام على مر العصور والأزمان، فكلهم مخاطبون بالتزام حدود الله والقيام عليها، كل حسب معتقده.

وكان لاختياره -ﷺ- للفظة "استهموا" مطابقًا للحال، فلو اكتفى بذكر ركوبهم في السفينة لما أضر ذلك المعنى المقصود، وهو أهمية الأخذ على أيدي العابثين، لكن ذكر الاستهام يدل على أن مواضع القوم في السفينة إنما جاءت على

وفق العدل والحق، ففي عرف الشرع أن القرعة عند الاحتياج إليها وسيلة من وسائل إقامة الحق وإشاعة العدل، وعليه ليس لأهل السفل أن يبدوا امتعاضهم من كون نصيبهم قد جاء في أسفل السفينة، فالحديث يشير إلى أن اقتسام الحظوظ في هذه الدنيا إنما هو بعدل الله وحكمته، وعلى المرء أن يسعى ويجتهد، ثم ليرضى بعد ذلك بما قدره الله له من متاع هذه الدنيا... [١].

ولا شك أن لفظة "استهموا" قد اكتسبت جرسها وقدرتها على حكاية هذه الدلالة، وذاك الإيحاء من مخارج الحروف وصفاتها، بما في "السين" من همس وخفوت، فـ"السين" صوت لثوي مهموس رخو مرقق خافت[٢] كما أن حرف التاء من الحروف الانفجارية الشديدة، وتناوب الأصوات المجهورة، واستمرار طول الانفجار في الأصوات ينسق التنغيم[٣]، وحرف "الهاء" بما له من دلالة صوتية تبرز حالة الترقب والانتظار التي يعيشها ركاب السفينة، ثم كان المد بالواو والألف، بما فيهما من امتداد صوت إشعارًا برغبته -ﷺ- في وصول هذه المشاعر إلى أفراد السفينة، وشمولها جميع الفئات، وقد كان تطويل الإيقاع هنا مقصودًا من النبي الكريم؛ لاستيفاء المعنى المصور، وذلك باستيفاء ما في الكلمة من طاقات تعبيرية وتصويرية للدلالة على المعنى، وهذا لا ريب من صميم البلاغة الصوتية التي تلتقي مع موضوعات علم البيان في غرض أصيل هو

(١) الفوائد المنتقاة من حديث مثل القائم على حدود الله، بقلم/ عبد الآخر جماد الغنيمي، ط الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، ص(٣٦، ٣٧)، دار البيان، الأردن.

(٢) ينظر: خصائص الحروف العربية ومعانيها، د/ حسن عباس، (١١٢)، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨م.

(٣) التركيب الصوتي في قصيدة "أنشودة المطر"، د/ قاسم البرسيم، (١١٤)، مجلة آفاق عربية العدد (٥)، ١٩٩٣م.

قوة الدلالة ووضوحها[1]، إذ "كلما ازدادت العبارة شبهًا بالمعنى كانت أدل عليه، وأشهد بالغرض فيه"[2].

والكلمة بهذه الصفات توجه حركة المعنى نحو إشعاعات الدلالة التي يحويها اللفظ، حيث تنشر معاني الهدوء، والسكينة، والاستقرار وقت الاقتراع؛ ليعرف كل منهم نصيبه.

وكان من حسن اختياره -ﷺ- لألفاظه كون الاقتراع في سفينة، وليس في مكان ثابت مستقر واضح المعالم، بل على سفينة محاطة بالأهوال والمخاطر من كل الجوانب؛ وذلك ليبين مدى أخذ الحذر والحيطة التي يجب أن يكون عليها الإنسان، حتى يصل بسفينة النجاة لبر الأمان، فطالما يشعر بالخوف من الوقوع في الهلاك، فإنه دائمًا يحتاط لكل شيء، ويحتاج للجهد والتعب للنجاة، بخلاف من يأخذ أيسر السبل التي لا تحتاج لجهد ومشقة، فتكون العاقبة وخيمة، وهذا الأمر واضح في السفينة بخلاف غيرها؛ لأن الحفاظ على استقرارها يتطلب من الجميع الحذ، والجهد بخلاف إغراقها فلا يكون إلا بخرقها، والخرق لا يكون إلا في الإفساد والإتلاف والعدول بالشيء عن جادته ، وكأن هؤلاء جنحوا من أول الأمر عن جادة الطريق، والجنوح إلى سلوك طريق الإفساد، فكان التعبير بلفظة " الخرق " من البلاغة المعجزة للنبي -ﷺ- دليلاً على أن هؤلاء مفسدون، يريدون أن يحققوا مصلحتهم الخاصة، ولو كان ذلك على حساب غيرهم، بإلحاق الضرر بهم ضرراً قد يصل إلى الهلاك ، فأوجب النبي -ﷺ- الأخذ على أيديهم من أول الأمر.

(١) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، د/ محمد إبراهيم شادي، ص(١٥)، الشركة الإسلامية للإنتاج والتوزيع، ط أولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

(٢) الخصائص لابن جني، (١٥٤/٢)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط رابعة.

وكان لحرف العطف "الفاء" – كما نرى– الأثر الواضح في الإشعار بتوالي الأحداث وسرعة انقضائها، فقد جاءت الأحداث متلاحقة متوالية في سرعة، وتعاقب جعلنا ننتبه، ونركز حتى لا يفوتنا حدث.

ومزية الفاء أنها «تجعل أول ما دخلت عليه موصولًا بآخر ما عطفت عليه، وكأنها عروة يمسك بها الحدث بالحدث، والفعل بالفعل، والقول بالقول، والحركة بالحركة، وتنتج لك من كل هذه الأحداث، والأقوال والأفعال، والانفعالات صورة واحدة، وفعلًا واحدًا قد كونته كل هذه المكونات»[1].

وآثر لفظة "أصاب" دون غيرها للدلالة على أن هذا الوضع قائم على الاختيار وليس الإجبار، فكون أحدهم أسفلها وكون أحدهم أعلاها كان نتيجة الاقتراع والاختيار.

وفي قوله -ﷺ- "أعلاها – أسفلها" طباق إيجاب أبرز المعنى وزاده وضوحًا، وقد كشف هذا الطباق عن المفارقة الشديدة والهوة البعيدة بين الأعمال الحسنة والالتزام بحدود الله التي ترفع أصحابها إلى أعلى الدرجات، والوقوع في المعاصي والأعمال السيئة التي تنزل بأصحابها إلى أحط الدرجات وأقلها، ولا شك أن الفرق بينهما كبير، فلم يكن الطباق هنا مجرد محسن بديعي فحسب، بل إنه قد منح المعنى الذي أراده رسول الله سعة وإحاطة وشمولية.

ثم يصور لنا النبي –الكريم– مشهداً من المشاهد التي تحدث مع كل موقف يزينه الشيطان للإنسان، حتى يستطيع من خلاله خرق الحدود واضعًا له حجة يقتنع بها وينفذها، كما فعل أهل السفينة حيث قدموا اقتراحًا، ألا وهو: «فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا»، فالجرم –هنا– يتمثل في إرادة خرق

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري، أ.د/ محمد أبو موسى، ص(٥٤)، ط(١)، وهبة ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

السفينة، وتزيينه ببيان أن الهدف منه ليس أن يريحوا أنفسهم من عناء الصعود ، والهبوط للحصول على الماء، وليس سببه منع أهل العلو لهم من الوصول إلى الماء، أو تشكيهم وتضررهم من المرور عليهم، بل رغبتهم الصادقة في عدم إيذاء من فوقهم بالمرور عليهم، وهو ما يؤكد أن الداعي إلى ارتكاب الجرم لأنفسهم وللآخرين، وهو حال أهل الضلال في كل زمان ومكان، يلبسون الباطل ثوب الحق حتى يلتبس الأمر على الناس، لذا كان من الواجب على أهل العلو– الذين هم أهل العلم – ، القائمين على حدود الله، أن يبينوا الصواب للناس، بتعرية الباطل، وفضح أساليب أهل الضلال»[1].

ولا شك أن مراجعة السياق الخارجي للنص "تكشف في كل حال أبعادًا من المعنى لا تنكشف مع الإلمام السريع" [2]، وبمراجعة السياق هنا تبين أن "الفاء" في قوله: "فقالوا" أدعى لملاءمة حال المخاطبين، ذلك أن حال المخاطبين حرص ومسارعة لإيجاد حلٍ لما هم فيه، وقوله: «لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا» أسلوب شرط حذف جوابه لفهمه من السياق؛ إذ التقدير: لكان خيرًا، ونحو ذلك، وفي الحذف مسارعة إلى المطلوب وهو إخبارهم بما يريدون، فقد سلك الرسول -ﷺ- طريق التشويق مع الإيجاز والاختصار، لينقل لهم فكرته، ويحقق غايته بأقصى سرعة، حتى ولو عن طريق حذف كلمة، والشرط (لو) متضمن معنى التمنى؛ لأنه مستحيل الوقوع في أن يخرقوا خرقاً في السفينة دون أن يلحقوا ضرراً بشركائهم في السفينة بفعلتهم هذه، كذلك أهل المعاصي، لا يحدثون معصية دون أن يمتد ضررها إلى أهل الطاعة الساكتين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالضرر يمتد

(١) الاستقصاء في المثل النبوي دراسة بلاغية، د/ أحمد إبراهيم محمد علي، المجلد الثاني العدد الثامن والثلاثون، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م، ص(١٣٠٧).

(٢) دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسى، ص(٢٢٢)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية، ١٩٨٧م.

إليهم لا محالة عند السكوت على المنكر، فـ (لو) هنا لتمني المستحيل أي مستحيل أن يقتصر ضرر الخرق على الخارق، دون أن يلحق المشاهد لفعله الساكت عليه.

هذا وقد غلب على الألفاظ الضمير وإضافتها لهم في قولهم: "أنا – خرقنا – نصيبنا..." وفي ذلك دلالة على الخصوصية ، وكأن هذا الجزء أصبح ملكًا لهم، يفعلون فيه ما يشاءون، وما يحلو لهم، وكأنهم مستقلون عن غيرهم من أهل السفينة، وزينوا كلامهم بقولهم "خرقًا "، أي: شيء قليل صغير حتى لا يدعو مجالًا للرفض ، فزين لهم الشيطان بأن الباطل حق ، وهذا ما يحدث بالفعل لمن تسول له نفسه سماع الشيطان والانسياق خلف ملذاته، فتكون الهاوية؛ لذا أتى بقوله: "خرقًا" نكرة؛ للتقليل والتحقير، أي: خرقًا صغيرًا: يمكن السيطرة عليه إذا حدث ضرر.

«فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

إن شرطية جوابها "هلكوا"، وضمير الرفع "الواو" عائد على أهل العلو في السفينة، وضمير النصب "هم" عائد على أهل السفل.

والمتأمل لتلك الجملة "إن يتركوهم" والتعبير بصيغة المضارع "يترك" يجعلك تستحضر صورة الحدث، وتتمثله كما لو كان يجري تحت وسائل الإدراك، فكأن الترك صار شيئًا محسوسًا يدرك، ثم جاء بجملة الجواب "هلكوا" فعلاً ماضيًا للدلالة على تحقق الوقوع، فإن تركوا وما أرادوا من الخرق وفعل المعاصي هلكوا جميعًا لا محالة.

كما نلاحظ وصل الجملة «وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعًا» بجملة «فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا»؛ وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية لفظًا وفي الإنشائية معنى، كما أن المناسبة بينهما قوية، ولا يوجد بينهما مانع من العطف؛ إذ إنهما اشتركا في أن كلًا منهما يعد توجيهًا وإرشادًا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى فعل الأعمال الحسنة، وتجنب الأعمال السيئة،

«وهذه المناسبة بين الجمل ضرورية لصحة نسق الكلام وتلاؤمه، وكلما كان الامتزاج بين الجملتين أشد تلاؤمًا، كانت الواو أكثر تمكنًا وأحكم إصابة» [١].

كما تتضح المقابلة بين الجملتين السابقتين، فقد قابل بين صورة الأعمال السيئة، بكل ما فيها من خطوط، وانحرافات تؤدي للهلاك وصورة الأعمال الحسنة ومن يقوم بها من أهل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بكل مقوماتهم، وتحري أصحابها كل عمل طيب؛ ليكون الفوز برضا الله؛ ولذلك برزت الصورة جلية، ذات رونق خاص، لها أثرها على الأسلوب، فأكسبته قوة وتماسكًا، فالترك يقابله الأخذ، والضمير في "يتركوهم" يقابل الضمير في "هلكوا" والهلاك يقابل النجاة.

وفي قوله "أخذوا على أيديهم" كناية عن استعمال القوة، ولا خلاف أن الكناية أبلغ من التصريح، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح"[٢] ، ففي التصوير بالكناية قول ببرهان؛ مما يؤكد المعنى ويجليه.

وقد عبر النبي الكريم في كلا الطرفين بـ "إن" الشرطية بدلًا من "إذا" الدالة على تحقق الوقوع، وكأن الرسول -ﷺ- أراد بذلك أن يشعر المخاطبين بأن طريق الهداية وطريق الحق واضح، وطريق الضلال وطريق الباطل واضح، فأيهما اخترت كانت العاقبة، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فالاختبار للجميع.

ومن ثم نستطيع القول بأن كل لفظة في الحديث الشريف مختارة لتؤدي دورها بعناية بالغة، دونما إغفال بطاقتها الإيحائية أو جرسها الموسيقي المبني على أصواتها، ومن ثم لا تستبدل بغيرها؛ لأنه يراعي فيها مقتضى الحال.

---

(١) دلالات التراكيب، أ.د/ محمد أبو موسى، ص(٢٨٥).

(٢) دلائل الإعجاز، ص(٧٠)، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، ط الخانجي بالقاهرة.

وتصويره -ﷺ- لهذا الأمر بهذه الصورة البديعة يترك في نفس السامع أثرًا حيًا يدرك به: كيف يتطور أمر المنكر في المجتمع، فهو يبدأ صغيرًا كخرق يسير، ثم لا يزال يتسع إن لم يتداركه أهل الحكمة حتى تصعب السيطرة عليه، وإن ذلك ليوحي للسامع بأهمية الأخذ على أيدي العابثين ، والقيام على حدود الله، ويجعله مستحضرًا لتلك النتائج الرهيبة المترتبة على التقاعس عن أمر الله، والمداهنة في حدوده سبحانه.

النموذج الثاني

قال الإمام البخاري -رحمه الله-: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي -ﷺ- قال: «إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها[1] أو قال: فليقبض بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها شيء»[2] .

المعنى العام للحديث والتحليل البلاغي:

هدف الشريعة الإسلامية هو التيسير على المكلفين، والرحمة بهم، ومن مظاهر تلك الرحمة هذا البيان النبوي الشريف في حفظ النفس البشرية من الضرر، والبقاء في أمان ودعة؛ لذا فقد احتاط النبي الكريم -ﷺ- لحرمة المسلمين احتياطات عظيمة منها: أمره -ﷺ- بالحرص على مصلحة المسلم، وحمايته من كل سوء، ونهيه عن تمني زوال النعمة عنه؛ لأن هذا ينافي الإيمان، فهذا النصح لمجرد السهم إذا مشى به الإنسان مكشوفًا، فربما أصاب أحدًا من المسلمين من الزحام في المسجد أوفي السوق؛ ولذلك أمره أن يضع يده على نصالها حتى لا يصيب أحدًا من المسلمين، فمن أراد إيذاء المسلمين فليس من أخلاق الإسلام في شيء، ولا من الولاء للمؤمنين في شيء، وفي هذا تأكيد على حرمة المسلمين والاحتياط في ذلك، لأن المساجد يكون فيها الكثير من الناس، لا سيما في أوقات الصلاة، وكذلك الأسواق، وهذا التأكيد من النبي -ﷺ- لأنه خشى أن يؤذي بها أحدًا، وفي هذا الحديث الشريف بيانُ كريمِ خلقهِ ورأفتهِ -ﷺ- بالمؤمنين، وتعظيم دم المسلم قليله وكثيره، كما فيه توضيح بيان آداب حمل السلاح، وأن حامل

(١) النَبْل بالفتح: السهام، والنصل: حديدة السهم والرمح، ينظر لسان العرب (نبل -نصل).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الفتن - باب قول النبي ﷺ: «من حمل علينا سلاحاً فليس منا»، الحديث رقم (٧٠٧٥).

السلاح عليه أن يتحرز ويحاذر أن يؤذى به أحدًا، وفيه مشروعية المرور في المسجد وإن كان قد وضع في الأصل للعبادة، لأن الحاجة تقتضيه.

أول ما يطالعنا في البيان النبوي الشريف البدء بالشرط، والتقيد بـ"إذا" الشرطية التي تربط بين الشرط والجزاء، وتجعل الكلام آخذًا بعناق بعض، حتى إذا نطق به النبي الكريم -ﷺ- تنبهت الأذهان وتيقظت العقول لسماع ما يلقيه، فيقع المعنى في نفوسهم ويستقر في أذهانهم فيؤتي ثماره.

يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني : «واعلم مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وان يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجئ على هذا الوصف حد يحصره، وقانون يحيط به، فإنه يجئ على وجوه شتى وأنحاء مختلفة»[1].

فالقيد بـ"إذا" الشرطية يلائم حرصه -ﷺ- على دعوة الناس جميعًا فرادى وجماعات... كما أن فيه تشويقًا وإثارة للنفس لتلقي الجواب حتى يستقر ويتمكن أيما تمكن.

وقد آثر التعبير بأداة الشرط "إذا" لما فيها من معنى الاستقبال، وبجانب إفادتها للشرط، فهي توحي بكثرة وقوع الحدث وتردده وتكراره، وكأن التحقيق المصاحب لمعناها

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص(٩٣)، ط: الثالثة المدني ١٩٩٢م.

«لا يشير فقط إلى القطع بوقوع الشرط، بل يمتد هذا التحقيق والقطع إلى الجواب، فيحث على الامتثال له، والرغبة الأكيدة من المتكلم في حصوله»[١].

وقد عدل عن الاستقبال إلى المضي في فعل الشرط بـ"إذا" (مر)، وذلك لنكتة بلاغية يقتضيها المقام، فالخروج على خلاف مقتضى الظاهر في صيغة الفعل يكون بابًا للمعنى المراد، يقول ابن جني: « قولهم: "إن قمتَ قمتُ" فيجئ بلفظ الماضي والمعنى معنى المضارع، وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بوقوعه، حتى كأن هذا قد وقع واستقر، لأنه متوقع مترقب»[٢].

وقد عدى الفعل "مر" بـ"في" بدلًا من "على" حيث يقال: مر عليه وبه يمرُ مرًا، أي اجتاز وذهب[٣] ، فعدى بـ"في" لتضمنه معنى الاستقرار والثبوت لا الاجتياز والعبور، فالمعنى من دخل واستقر لا من تجاوز وعبر، فحرف "في" يدل على دخوله واحتواء المكان له[٤].

والإضافة إلى الضمير "كم" في "أحدكم" للدلالة على دعوته -ﷺ- للتضامن والتآذر الذي يجب أن يكون عليه الأمم في مجتمعاتهم، لأنهم كالجسد الواحد، وأنه منهم وهم منه يصيبه ما يصيبهم ، ويلحقه ما يلحقهم، وهذا فيه حث على الامتثال للأمر، فهو خطاب ملزم للجميع بضرورة توفير الأمن والأمان في

(١) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، ص(٣٤٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) الخصائص، ابن جني، ج(٣) ص(١٠٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، بدون تاريخ.

(٣) لسان العرب، (مرر).

(٤) التضمين بين حروف الجر في صحيح البخاري "دراسة نحوية دلالية"، إيناس شعبان محمد درباس، ص(٧٥)، رسالة ماجستير – الجامعة الإسلامية بغزة– كلية الأداب.

جميع المجتمعات، والبعد عما يلحق الضرر والأذى بالأمة خاصة في الأماكن العامة كالمساجد والأسواق والمدارس وما شابهها.

كما أن من سمات القيد بـ"إذا" مخاطبة الجمع بصيغة المفرد، وفي ذلك من التأثير والإقناع للمخاطبين ما لا يخفى، فالخطاب كلما كان أخص كان أدعى لاهتمام المخاطب وتأمله، ويدل دلالة واضحة على مدى قربه -ﷺ- من أمته، حيث خاطبهم خطاب القلق عليهم، وكأنه يهمس في آذانهم فردًا فردًا، ترغيبًا في الطاعات، وترهيبًا من المعاصي والزلات.

ولا تخفي تلك الإضافة في قوله: "مسجدنا – سوقنا" وذلك للتعظيم والتشريف، فالمراد جميع مساجد الإسلام، لا مسجده -ﷺ- فقط، وجميع الأسواق لا سوق المدينة آنذاك[1].

وقد ذكر النبي الكريم -ﷺ- المسجد والسوق دون غيرها من الأماكن، كما قدم المسجد على السوق، وفي هذا التقديم دلالة عظيمة أراد النبي -ﷺ- التنبيه عليها، ألا وهي مدى ترابط الشريعة السمحة بين العبادات والمعاملات، فالمسلم مرآة لشريعته، فإذا فعل ما أمره الله به ورسوله الكريم انعكس ذلك على تصرفاته في عباداته، ومن ثم في معاملاته، فالمؤمن الحق لا يروع أحدًا ولا يرهب أحدًا، فمن آمن بالله ورسوله ائتمن الناس تصرفاته وأفعاله، فإذا صلح إيمان العبد صلحت وسلمت تصرفاته من كل سوء ، لذا نجده -ﷺ- قدم المسجد في الذكر لشرفه وللتنبيه على مزيد الاحتياط مما يؤذي، وقد عبر بقوله : (مسجدنا ، سوقنا)، عن الأماكن العامة لما لهما من خصوصية الذيوع والانتشار والظهور في الاجتماع فيهما عن غيرهما من الأماكن ولكثرة الجمع فيهما ، وإلا فالحكم يشمل كل مكان

(١) فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، للعلامة المناوي، مكتبة مصر، ط ثانية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، (٤٤٣/١).

عام كأماكن المناسبات والأفراح، وما قد يحدث فيها من خطر حمل السلاح مع عدم الاحتياط منه.

وقد حسن الوصل بين قوله -ﷺ- : « أوفي سوقنا» على قوله: «في مسجدنا» بحرف العطف "أو" وذلك للتأكيد على ضرورة توفير الأمن والأمان، وعدم إيذاء الآخرين سواء في المسجد أو خارجه.

و "أو" هنا للعطف فهي بمعنى الواو، فمن معاني "أو" العطف يقول الثعالبي: "أو" تأتي بمعنى واو العطف(١).

وذكر المالقي أن: "أو" حرف عطف تعطف مفردًا على مفرد، وجملة على جملة...(٢).

وإذا نظرنا في قوله -ﷺ- : «إذا مر ... ومعه نبل» دون أن يختار لفظاً أخر «فلم يقل: ضربنا أو قاتلنا، فالمطلوب ألا يروع الإنسان في أرضه، وكأن الأمن جزء من معنى الوطن، ومن روع هذا الأمن فليس من أهل هذا الوطن، لأنه ما دام روع الناس في أوطانهم فليس منهم، والمطلوب مراجعة هذه القيمة الإنسانية العالية، وليس فقط أن نفهمها أو نكتبها، وإنما نشعر بأهميتها ونشعر القارئ بأهميتها»(٣).

(١) فقه اللغة وسر العربية للثعالبي، تح: عبد الرزاق المهدي، ص(٢٤٨)، إحياء التراث العربي، ط(١)، ٢٠٠٢م.

(٢) رصف المباني في شرح حروف المعاني، المالقي، تح: أحمد محمد الخراط، ص(١٣١)، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، بدون تاريخ.

(٣) شرح من أحاديث مسلم، أ.د/ محمد أبو موسى، (٨٩/١)، مكتبة وهبة.

ويمكن القول بأن المعنى كله معقود على الجملة الحالية «ومعه نبل» وكأن هذه الجملة الحالية بمثابة الوعاء اللغوي الذي فيه خلاصة المعنى وصفوه، أو هي اللؤلوة الأم ومجتمع الخيوط المضيئة التي تشرق بالمعنى المراد(١).

ويلاحظ التنكير في قوله: "نبل" وذلك للتعميم، وذلك ليشمل أي آلة من شأنها أن تلحق الضرر بالآخرين، فهي محرمة بأي شكل من الأشكال مراعاة لتوفير الأمن للناس.

وقد وصل قوله: «فليمسك» بالفاء على قوله: «إذا مر أحدكم... » فالبناء واحد، والسبك متداخل، والنظم متماسك، وقد أتت الفاء، لتزيد طرفي الشرط ترابطًا وتداخلًا، فالفاء تفيد تصعيد المعنى، وتعكس الإسراع على تنفيذ المطلوب بالمسك "فليمسك" أو "ليقبض" وهذا الشك من الراوي وكلاهما معطوف بالفاء، ،فقوله (يمسك) بمعنى التحكم بالشيء ، والسيطرة عليه يقال: مسك بزمام الأمور أي تحملها بنفسه، مسيطر عليها، تحكم منها،وامتسك به كله بمعنى اعتصم به، وقوله : (يقبض) يقال قبض على زمام الأمور: تحكم فيها، سيطر عليها ، والَمْقبِضُ من القوس والسيف : حيث يقبض عليه بجمع الكف ، وأقبضت السيف والسكين، أي جعلت له مقبضًا(٢).

كما أن كليهما مضارع ما يدل على خطورة عظم الموقف ، وضرورة التصرف بسرعة حتى لا يتأذى أحد، والتعبير بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر، "فليمسك" أو "ليقبض" ليجعلك تستحضر صورة الحدث وتتمثله كما لو كان يجري تحت وسائل إدراكك، فكأن المسك والقبض على النبل صار محسوسًا مشاهدًا ، كل ذلك في مشهد حركي حسي تلوح صورته في الأفق، وما ذلك إلا من أثر صورة المضارع

(١) شرح من أحاديث مسلم، أ.د/ محمد أبو موسى، (١/١٢١)، مكتبة وهبة.

(٢) مختار الصحاح/ زين الدين أبو عبد الله محمدالرازي/ ت/ يوسف الشيخ محمد / الناشر : المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا، ط/ الخامسة /١٤٢٠/١٩٩٩م

التي أسهمت في بناء القيد بالدلالة والبنية والنسق التركيبي، وقد آثر -ﷺ- التعبير بالفعل المضارع المقترن بلام الأمر، على التعبير بالفعل الأمر الصريح، وذلك لما يشعر به الفعل المضارع من الاستمرار، والدوام فما أراده الرسول -ﷺ- هو الاستمرارية في هذا الأمر وليس مجرد فعله في بعض الأحيان وتركه في بعضها، مما يشهد بدقة التعبير النبوي، إذ لم يكتف الرسول -ﷺ- بمجرد الأمر ولكنه آثر استعمال صيغة تعطي معنى الأمر والاستمرارية في وقت واحد، فالأمر فرع عن مضارعه وكأن هذا الأمر يتكرر كلما تكرر الفعل .

والفاء في قوله: "فليمسك – فليقبض" جوابية تصدرت المقيد "الجواب" والفاء الجوابية معناها الربط، وتلازمها السببية والترتيب أيضًا(١).

ولا شك أن مراجعة السياق الخارجي للنص «تكشف في كل حال أبعادًا من المعنى لا تنكشف مع الإلمام السريع»(٢).

فالشرط سبب لحصول الجزاء، ومقدمه له فـ «أسلوب الشرط يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام، ربطًا ملاحظًا فيه ترتب المسبب على السبب، فإذا ذكرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون، فإذا ذكر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن»(٣).

كل تلك المعاني مرادة هنا، فهي توافق المقام وتؤدي المعنى المراد.

---

(١)الجني الداني في حروف المعاني، الماردي، تح: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، ص(٦٦)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ

(٢) دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسى، ص(٢٢٢)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية، ١٩٨٧م.

(٣) خصائص التعبير القرآني في سماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعني، ج(١) ص(٢٠٨)، مكتبة وهبة، ط(١)، ١٩٩٢م.

وقد عدى الفعل "يمسك" بـ"على" للمبالغة في المحافظة والقبض عليها[1]، كما أن في التعبير ب"على" معنى العلو والقدرة والسيطرة على النصل.

وقد آثر النبي الكريم -ﷺ- قوله: "كفه" بدلًا من "يده" زيادة في التخصيص، وكأنه أراد أن يصور لنا الصورة في أكمل وجه، فالكف يقبض على الشيء تمامًا؛ ولا يترك له أثرًا، فكأن الإسلام يدعوه لأخذ الحذر والحيطة، من إيذاء الناس وضرورة رفع الضرر عنهم، وتوفير الأمن لهم، وما ذلك كله إلا خشية "أن يصيب أحدًا من المسلمين منها شيء"، ولما فيها من معنى زائد على معنى اليد، وهو الكف والمنع للأذى، فناسبت المقام.

وقد آثر النبي الكريم التعبيربالجملة الفعلية ـ المصدر المؤول ـ "أن يصيب" بدلاً من الاسمية (إصابة) للدلالة على تجدد حدوث الفعل، ووقوعه، وخوف وقوع الضرر على المسلمين في أي وقت كان، فيجب أخذ الحذر والحيطة في الاعتبار، وهذه دلالة الجملة الفعلية بخلاف الاسمية الدالة على الثبوت والدوام .

كما نكر قوله: "أحدًا" ؛ للدلالة على العموم أي: الناس جميعًا سواءٌ في ذلك الحكم، كما قدم المفعول به "أحدًا" على فاعله؛ لكونه الأهم ومحل العناية والأنظار، فحفظ النفس من الضرر، وعدم الأذى بأي شكل من الأشكال مطلب إسلامي يجب العمل عليه وتوفيره، وخص المسلمين دون غيرهم في هذا الأمر؛ «لأن الأمر مقيد بكونه في "مسجدنا وسوقنا" فالأمر هنا خاص بالمسلمين، لذا جاء تقييد الحكم بهم دون غيرهم، ولا يتعارض هذا مع كون الحكم عامًا بالمسلمين وغيرهم، ويكون تخصيص المسلمين بالذكر اهتمامًا بشأنهم»[2].

كما نكر قوله: "شيء" وذلك للعموم والشمول، وفيه دلالة على أنه لو كانت الإصابة طفيفة أو قليلة فإن صاحبها يكون قد ارتكب إثمًا عظيمًا نتيجة لترويع

(١) مرقاة المفاتيح، (٩٠/١١)، وفيض القدير، (٤٤٣/١).
(٢) مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألباني، (٣٩١/١).

الآمنين وإدخال الرعب في قلوبهم، وبهذا يتأكد لنا دقة نظم القيد، ومجيء لبناته معبرة بدقة عن المراد النبوي، فالبيان النبوي أتى بلبنات دقيقة لا يسد غيرها مسدها، ولا يقوم مقامها، فهي ذات صبغ دلالي ذي خصوصية تلائم المقام.

المبحث الثاني
من أسرار البلاغة النبوية في شراكة المجالس وحقوق الجالسين فيها

النموذج الأول

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله -ﷺ- «من أهديت له هدية، وعنده قوم فهم شركاؤه فيها»[١]. وفي رواية " وعنده ناس فهم شركاء فيها".[١]

المعنى العام للحديث والتحليل البلاغي:

استهل النبي الكريم -ﷺ- بيانه الشريف بهذا الموصول (من) لإثارة انتباه السامعين، ولفت أنظارهم إلى أهمية ما يليه، ولإحداث نوع من التأكيد والمبالغة من خلال التدرج من الإيهام إلى الإيضاح[٢] .

(١) رواه الطبري في الكبير والأوسط، وفيه مندل بن علي، وهو ضعيف، وقد وثق / باب فيمن أهديت له هدية وعنده قوم / رقم ٦٧٢٨، وفيه رواية عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ "من أتته هدية " وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها " رواه الطبري في الكبير، وفيه يحيي بن سعيد العطار، وهو ضعيف ، انظر : صحيح البخاري / باب من أهدي له هدية وعنده جلساؤه ، فهو أحق / رقم الحديث ٢٤٩٥ ، ويذكر أن هذا الحديث جاء عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصلح إسناداً من المرفوع، فأما المرفوع فوصله عبد بن حميد من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس مرفوعاً ورواه محمد بن مسلم الطائفي عن عمرو كذلك، والمشهور عنه الوقف ، صحيح البخاري ص٢٦٩ ورداً على من قال بضعفه فيجاب عنه بأن الحديث وإن كان ضعيفاً في سنده ، إلا أن الحديث النبوي . الضعيف ـ إذا كان يعمل به في فضائل الأعمال كما قال الفقهاء ، فمن باب أولى أن يؤخذ به في الاحتجاج اللغوي؛ لأن الحديث مع كونه ضعيفاً ، إلا من رواه فهم من خلص العرب الذين يحتج بلغتهم في اللغة والبلاغة .

(٢) بتصرف من البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، أ.د/ محمد أبو موسى، ص(٢٧٩)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط(٢)، ١٩٨٨م.

فـ"من" كلمة مبهمة لا يعرف المقصود بها إلا بصلتها بعدها "أهديت له هدية..." وفي هذا قدر عال من الإثارة والتشويق، فالاستهلال باسم الموصول فيه تشويق للسامع، وإثارة لرغباته في معرفة الصلة، فإذا ما ساقها النبي -ﷺ- أتى على نفس السامع، وقد استبد بها الشوق حتى بلغ منتهاه، فيؤثر فيها، وهكذا يهيئ النبي -ﷺ- نفوس المتلقين، ويعدها إعدادًا جيدًا، حتى يؤتي خطابه ثماره المنشودة، وغايته المعقودة.

والاستهلال هنا باسم الموصول (من) لإفادة العموم، أي: كل من أهديت له هدية، ثم تلتها صيغة "أهديت" حيث صيغت بالبناء لما لم يسم فاعله، لإفادة العموم ولمناسبة العموم المستفاد من اسم الموصول (من)، وحذف الفاعل فيه دلالة على شمولية الهدية وعموميتها لتشمل كل قريب وبعيد، لأن المشاركة في الهدية تقع من هدية القريب والبعيد، ولا يختص المهدى إليه بهدية القريب أوالبعيد دون جلسائه، وبهذا يتأكد لدينا دقة نظم الموصول، ومجئ لبناته معبرة بدقة عن المراد النبوي، فالبيان النبوي أتى بلبنات الموصول بحيث لا يسد غيرها مسدها، ولا يقوم مقامها فهي ذات صبغ دلالي ذي خصوصية تلائم المقام.

ثم أردف ذلك بتنكير "هدية" وجيء بها نكرة لإفادة التقليل والتكثير والتعظيم والتحقير، أي: إذا كانت هدية قليلة أو كثيرة صغيرة أو كبيرة، فالحكم فيها ينسحب على ما قل وكثر من الهدية، حتى لا يظن أن الشراكة في الهدية تقع على ما عظم دون ما قل منها، والمقصود بالهدية هنا كل ما كان عينًا أو طعامًا أو شرابًا...

كما نكر كلمة "ناس" لإفادة العموم، أي الناس عامة، ولا يخص بالمشاركة بها ناس دون غيرها، أو يختص بها القريب دون البعيد، أو المؤمن دون غير المؤمن، وقد جعل النبي الكريم -ﷺ- هذا الباب لتقوية أواصر المحبة، إذا كان الحضور مؤمنين، وتأليف القلوب إذا كان مع الحضور غير المؤمنين.

قوله: "فهم شركاء فيها" عطف بالفاء التي للتعقيب لتؤكد سرعة ترتب الشيء على شيء، فبمجرد الهدية وإعطائها للمهدي إليه، تكون المشاركة فيها بين الجلساء على اختلافهم، وفي ذلك من الترغيب في المشاركة والود بين الناس مالا يخفى، لذا كان اكتساء المعنى (الفاء) مطابقة لمقتضى الحال، ومراعاة للمقام، الذي تلائمه الفاء بما تحمل من دلالة على سرعة المشاركة في الهدية، وكان يمكن في غير الحديث الشريف أن يؤدى أصل المعنى دونها، ولكن النبي -ﷺ- اعتبرها مع ما يؤدى به أصل المعنى المراد، فبلغ بكلامه القلوب، وأثر في النفوس، ووضح لهم النبي ما خفى عن إدراكهم، لذا كانت الفاء في موضعها سبيلًا أدى المعنى على أكمل وجه، وهكذا كلامه -ﷺ- ... كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة[1].

هذا وقد عرف المسند إليه بالضمير في قوله "هم" لفهمه من السياق، ولتمييزهم أكمل تمييز أي "الناس الموجودون عنده في تلك اللحظة".

كما جاء بلفظة "شركاء" نكرة لعدم تخصيص فرد دون آخر في الهدية، ولفتح الباب أن يدخل معهم في شركة الهدية غيرهم من غير الحضور إن رضي الحضور بذلك، ولذلك لم يقل (فهم فيه الشركاء)، ولم يقصر الشركة في الهدية على الحضور، بل رغبهم في تشريك غيرهم فيها إن رضوا بذلك، وهذا ما بني عليه الحديث وتركيبه من أوله لنهايته، وواضح من هذه اللفظة "شركاء" من جمال مميز، ووقع نغمي يعطيها تناسقًا كاملًا مع المعنى، وائتلافًا مع دلالات المعاني المصاحبة، بحيث لا نستطيع أن ننزعها من مكانها، أو نأتي بمرادف لها، فهي كلمة توحي

(١) السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، الرافعي، تح: أبو عبد الرحمن البحيري، وائل بن حافظ بن خلف، ص(٢٩)، دار البشير للثقافة والعلوم طنطا، ط(١)، بدون تاريخ.

بظلال المعاني المصاحبة، وتنبئ عن المعنى المراد، كما تحكى بجرسها وقوة إيقاعها ضرورة الالتزام بأمر النبي الكريم، ولا ريب أن لصفات الحروف دخلًا في جرس الكلمة، وإكسابها هذه القوة والشدة، فـ"الشين" حرف لثوي رخو مهموس، فيه تفشي واسترخاء، واتساع في الفم، لأن الهواء يتفشى عند ارتفاع طرف اللسان إلى مؤخر اللثة ومقدم الحنك الأعلى عند نطقه، فلا يقتصر تسرب الهواء على المخرج بل يتوزع في جنبات الفم(١)، فصوت الشين "شركاء" باشتماله على هذه الصفات يصور انتشار المحبة والمودة كل أركان المجتمع، وشموله جميع أفراده: علاقاتهم ومعاملاتهم ... ثم كانت "الراء" الدال على التكرار(٢) وهي حرف تكراري انفجاري مجهور ليحكي لنا ما يمكن أن نسمعه من القبول والتردد في الشركة تعبير عن جهد جهيد ومعاناة للالتزام والامتثال لأوامر الرسول -ﷺ- ثم ألف المد بما فيها من امتداد صوت -إشعارًا برغبته -ﷺ- في وصول هذه المشاعر إلى أبعد غاية، وشمولها جميع الأفراد وما تعكسه تلك الإطالة من شيوع التحاب بين فئات المجتمع.

وتطويل الإيقاع في البيان النبوي يكون مقصودًا أحيانًا كما هنا، وذلك لاستيفاء المصور، وذلك باستيفاء ما في الكلمة من طاقات تعبيرية وتصويرية للدلالة على المعنى المراد، ثم نختم الكلمة بحرف "الهمزة" وهي من الحروف الانفجارية الحلقية الشديدة التي ساعدت على إيصال المعنى لنفس المتلقي، وبالنظر لأصوات الكلمة "شركاء" نجد من أصواتها ما يخرج من طرف اللسان، وهو "الراء" ، ومنها ما يخرج من وسطه، وهو حرف الشين، ومنها ما يخرج من أقصى

(١) انظر: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د/ تامر سلوم، (١٩) دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا اللاذقية، ط أولى، ١٩٨٣م.

(٢) انظر: علم اللغة العام "الأصوات"، د/ بسام بركة، (١٢٨)، منشورات مركز الإنماء القومي، ط أولى، بدون.

اللسان، وهو الكاف، ومنها ما يخرج من الحلق، وهو "الهمزة"، وكأن جميع المخارج قد تعاونت مع بعضها، وتشاركت في إيصال المعنى، ولتحدث المشاركة الفعلية على أرض الواقع كما حدثت المشاركة في بنية الكلمة.

وهكذا نجد كلمات الحديث تتمتع بجرس موسيقي رائع، تنساب حروفها على اللسان انسيابًا، وترتاح الأذن لسامعها ارتياحًا[١].

وما ذلك إلا لأن نظام المفردات في العربية، متميز عن سائر اللغات في العالم، يضاف إلى ذلك ميزتها في حروفها وتفوقها بها على سائر اللغات من حيث استيفاؤها لجهاز النطق الإنساني، ونظام الصفات الصوتية، ونظام الحركات في تكوين حروفها، وهذا يدل على غناها في التوقيعات الصوتية الصادرة عنها[٢].

<u>كما يستوقفنا في هذا الحديث الشريف عدة أمور منها:</u>

مجيئه في سلسلة متصلة من الجمل الخبرية التي تدل على يقين قائلها بمحتواها، ودعوة منه -ﷺ- إلى الناس جميعًا على الحرص بإتيانها والالتزام بها، فقد حثهم بأسلوب يتسم بالحنو والرقة، ومجانبة الأمر الصريح مما كان له بالغ الأثر في تأكيد هذه الأمور في نفوس السامعين، فبدأ حديثه بالموصول الذي أشاع الإبهام والغموض، ثم أصدر الحكم بالشركة، وختم الحديث بنفس الحكم والتأكيد عليه صراحة بقوله: "شركاء" مما يؤكد اهتمام الرسالة المحمدية بالإيثار

(١) الحديث النبوي (بلاغته – مصطلحه – طرقه)، د/ محمد الصباغ، (٧٩)، ط المكتب الإسلامي، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

(٢) البنية الإيقاعية في الأسلوب القرآني، د/ عبد السلام الراغب، بتصرف، نسخة مخطوطة على الموقع الإلكتروني https://islamsyria.com/site/show-library/٢٩٣

والسعي في سبيل إسعاد الغير، ترسيخًا للأخوة الإنسانية، كما احتوى الحديث الشريف على الإيجاز الذي أثمره اسم الموصول وصلته.

وللإيجاز مزية تعبيرية يقول الجاحظ: «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه»[١].

فالمقام مقام ترغيب في فعل الخير، فناسب أن يأتي بالموصول وصلته في بناء تركيبي واحد، ليصل إلى النفس في إيجاز جمع المعنى في بنية تركيبية واحدة متماسكة موجزة، وهذا من سمات كلامه الشريف -ﷺ- [٢].

(١) البيان والتبيين الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ج(١) ص(٩٧)، المطبعة التجارية الكبرى – القاهرة، ط(١)، ١٩٢٦م.

(٢) السابق نفسه، (١٣/٢).

النموذج الثاني

روى البخاري بسنده عن الزهري قال: أخبرني عروة عن أبي حميد الساعدي أنه أخبره أن رسول -ﷺ- استعمل عاملًا، فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال: يا رسول الله هذا لكم، وهذا أهدى لي، فقال له: «أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا؟، ثم قام رسول الله -ﷺ- عشية بعد الصلاة، فتشهد، وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فما بال العامل نستعمله فيأتينا، فيقول: هذا من عملكم، وهذا أُهدى لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه، فنظر هل يهدى له أم لا؟ فو الذي نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرًا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تَيْعَر، فقد بلَّغت» فقال أبو حميد: ثم رفع رسول الله -ﷺ- يده حتى إنا لننظر إبطيه، قال أبو حميد، وقد سمع ذلك معي زيد بن ثابت من النبي -ﷺ- فسلوه [1].

معنى الحديث والتحليل البلاغي :

الهدية عامة أمر مستحب مندوب إليه، وقد أمر بها النبي -ﷺ- وحث عليها، لما يترتب عليها من الحب والود والمعاني الاجتماعية الحسنة، ولكن يخرج من هذا الاستحباب للهدية: «الإهداء للموظفين والعاملين ومن في معناهم من القضاة والأمراء والولاة، وذلك سدًا لذريعة الرشوة، فما أبعد ما بين الهدية المأمور بها المثاب عليها، والرشوة المحرمة المنهي عنها، وإن سميت أو غلفت بغلاف الهدية، فالحديث الشريف يدعو إلى رعاية مصلحة العامة ، واحترام شئون الناس،

(١) الجامع الصحيح، ج(٢) ص(٢٣٥)، ج(٤) ص(٢١٦)، فتح الباري، ج(٥)، ص(٢٧٦)، ج(١١) ص(٦٤٢)، ج(٣) ص(٢٠٤)، وعمدة القارئ، ج(١١) ص(٥٩)، ج(١٩) ص(١٤٠)، ج(٢٠) ص(١٤٢).

فهو حلقة مترابطة مع حلقات التآلف، والسعي نحو إيجاد مجتمع رفيع كريم نظيف سليم، يتضمن الأصول والمناهج التي يقوم عليها المجتمع، مجتمع نقي القلب نظيف المشاعر، مجتمع له أدب مع الله، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، وأدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه، أدب في طلب المودة والرحمة، لذا فهو حديث صريح في تعظيم حقوق الغير، والحث على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم، ولا مكروه»[١].

التحليل البلاغي:

يخبرنا أبو حميد الساعدي راوي الحديث- وهو صحابي مشهور-[٢] أن رسولنا الكريم -ﷺ- قد استعمل عاملًا، ويلاحظ أن الرسول -ﷺ- الكريم قد صدر حديثه بجملة مبهمة بقوله: «استعمل عاملًا»، ثم وضح بباقي جمل الحديث والتي بين من خلالها ما حدث، حيث ذكر أنه استعمل عاملًا دون توضيح فيما استعمله وفي أي شيء؟ ثم نجد جملة «فجاءه العامل» حيث عطفها على ما قبلها بالفاء التي أفادت السرعة في انقضاء الحدث، وطوت كل التساؤلات، وأدت الغرض المطلوب، فكان مقتضى الحال أن يخبرنا عن هذا العامل، وفيم استعمل؟ ومن استعمله؟ وما طبيعة العمل...؟ وغيرها من الأمور التي قد تطرأ على الذهن عند سماع تلك الأمور، لكن النبي الكريم لما كان مبلغًا وداعيًا، كان الإيجاز أبلغ لأداء دعوته لأمة البلاغ، مخافة الملل، كما كان الإيحاء بابًا مُعينًا على جوامع الكلم، فإن

(١) بتصرف من صحيح مسلم بشرح النووي، ج(١٦)، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

(٢) الإصابة، ج(٧) ص(٨٠-٨١).

للألفاظ أرواحًا، ووظيفة التعبير الجيد أن يطلق هذه الأرواح في جوها الملائم لطبيعتها، فتستطيع الإيحاء الكامل والتعبير المثير(١).

وكلما أرجعت البصر إلى تلك الأساليب الموحية يرجع إليك البصر بدلالة جديدة تثري المعنى وتزيده، بما تحمل من لطائف وأسرار ومذاقات(٢).

وبذلك اتضح ما كان مبهمًا من عمله بأنه يعمل في ولاية أمر من أمور الناس، مما يقتضي معه الأمانة والبعد عن أي شائبة.

ولما كان غرض النبي من إقامة هذا الحديث هو تعليم الأمة أمور دينهم ودنياهم حتى يعم الأمن والأمان في المجتمع، ويقضي على الفوضى والفساد، ساق حديثه الشريف بطريقة تعليمية بحتة، مرة بطريق الإيجاز، ومرة بطريق التوبيخ ، وهذا واضح من قول العامل: "يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أهدى لي".

حيث أقام العامل الطرفين على التعريف، فقال: "هذا لكم"، "هذا أهدى لي"، وذلك لتميزه أكمل تمييز، وقال: "هذا أهدى لي" ولم يقل: "هذا لي" كما في الأولى؛ وذلك حتى لا يدع مجالًا لسؤال أحد، وما هذا؟

فكأنه معلوم أن ما سيرد سيكون مدخله لبيت مال المسلمين أما ما في يده أراد أن يشير أنه أهدي له وخاص به؛ لذا قال "أهدى لي"؛ لتخصيصه وتميزه عن غيره، فهو لم يأخذه مما أعطى لبيت المال ، وفي هذا الكلام دليل قطعي على حسن نية العامل وعدم علمه بحل وحرمة هذا الشيء.

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص(٧٣)، أ/ سيد قطب، دار الشروق، ط الثامنة، ٢٠٠٣هـ.
(٢) الخصائص البلاغية للقيد بـ"من" الشرطية في الصحيحين، د/ حمدي على أبو المحاسن البهوي، مجلة اللغة العربية بالمنصورة، العدد السابع والثلاثون، ٢٠١٨م، ص(٥٧٦).

وقد ساق العامل حديثه على طريقة أخاذة من خلال المقابلة التي تلمح بين قوله: "هذا لكم، وهذا أهدى لي".

فقد قابل بين الصورتين، بكل ما في صورة من خطوط وألوان؛ لذلك برزت الصورة جلية ذات رونق، واضحة المعاني، متلاحمة الأجزاء، متعانقة الألفاظ، فبدت كأنها لحمة واحدة، ونسيج واحد، وبلاغة المقابلة تكمن في أنها سبب في الوفاء بالمعنى، وتمام الغرض المساق له الكلام، فلما كان الغرض من حديثه التوضيح وبيان حقيقة الأمر، كانت المقابلة أتم في أداء هذا المعنى، وأوفى في الغرض المساق له الكلام.

هذا وقد عطف بين قوله: "وهذا أهدى لي" على قوله "هذا لكم" وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين، لاتفاقهما في الخيرية لفظًا ومعنى، كما أن المناسبة بينهما قوية ولا يوجد بينهما مانع من العطف إذ إنهما اشتركا في أن كلا منهما يعد توجيهًا وتوضيحًا وإرشادًا «وهذه المناسبة بين الجمل ضرورية لصحة نسق الكلام وتلاؤمه، وكلما كان الامتزاج بين الجملتين أشد تلاؤمًا، كانت الواو أكثر تمكنًا وأحكم إصابة»[1].

«وقول العامل: "يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أهدى لي» ليس للعامل صاحب هذه القصة التي عنى بها رسول الله -ﷺ- واهتم إلا هذه الجملة ، وهذه الجملة هي قطب الرحا في هذا الحديث، وهي تشخيص الداء الذي تعاني منه الشعوب في الزمان كله، وهي التي فتحت وتفتح على الناس أبوابًا من الشر وأبوابًا من الفساد، وقد سماها عمر بن عبد العزيز رشوة ، وذلك فيما رواه ابن سعد من طريق فرات بن مسلم قال : اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح، فلم يجد في بيته شيئًا يشتري به، فركبنا معه فتلقاه غلمان الدير بأطباق تفاح، فتناول واحدة، فشمها، ثم رد الأطباق، فقلت له في

(١) دلالات التراكيب، أ.د/ محمدمحمد أبو موسى، (٢٨٥).

ذلك، فقال: لا حاجة لي فيه، فقلت ألم يكن رسول الله -ﷺ- وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟ فقال: إنها لأولئك هدية، وهي للعمال بعدهم رشوة»[1].

والرشوة مثلثة الراء وجمعها رُشا ورشِا بضمها وكسرها، وإذا كانت كذلك في زمن عمر بن عبد العزيز وهو زمن التابعين فكيف هي في زماننا؟[2].

وبعد هذا التوضيح من العامل جاء رد النبي الكريم -ﷺ- فقال له: «أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا؟».

وبخ الرسول الكريم -ﷺ- هذا الصحابي الجليل موجهًا من خلاله رسالة إلى جميع الصحابة –رضي الله عنهم– وإلى من يجيء بعدهم من الناس كافة، رسالة مفادها رفض الرشوة، ولو خاطبه الرسول -ﷺ- فقال له: "هذا ليس من حقك؛ لأنك لو جلست في بيتك ولم تكن موظفًا في جمع الصدقات ما جمعت هذا الذي تقول: إنه لك"، لما كان فيه أي توبيخ، ولكان كلامًا طويلًا غير مفحم غير أن هذه الصيغة الاستفهامية أوصلت الرسالة بطريقة حالت دون محاولة ابن اللتبية النقاش في الأمر.

وذلك لأن التوبيخ يكون «إذا ابتغى السائل بسؤاله عقاباً نفسياً بالمخاطب لصدور شيء مشين منه، كان الأجدر به ألا يصدر منه، ويكون التوبيخ إما لجعل المخاطب يرتدع عن أمر بدر منه، فيستفيد من التوبيخ، فيتجنب ذلك الأمر، وبذلك يكون قد استفاد من ذلك التوبيخ، وإما أن يكون قد فات آوان الردع، ولن يستفاد من التوبيخ سوى إنزال العقاب النفسي عليه، والتقريع لم يصدر أبدًا عن النبي -

(١) فتح الباري، ج(٥) ص(٢٧٥-٢٧٦).

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول، ص(٢٦٧)، أ.د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط(٢)، ١٤٢١هـ، ٢٠١٠م.

ﷺ- فهو معصوم من هذا، وإنما صدر عنه التوبيخ ليتعلم الصحابة من أخطائهم»[1].

نجد النبي قد استمع لمقالته وأجابه برد لا يحتاج معه إلى جواب، وكان رده -ﷺ- مخالفًا لما عليه الظاهر، فقد كان متوقعًا غير ذلك، كأن يقول له: من أهداك؟ ولِمَ أهداك؟ وما نوع الهدية؟ وسببها... أو يرد عليه قائلًا بأن هذا خطأ، ولا يجوز أن تقبل الهدية بهذه الطريقة، وبتلك الحالة، أو يقول له: ردها إلى بيت المال، ولا تفعل ذلك مرة أخرى، وربما كان هذا الحديث يدور بينه وبين الرسول، ولكن الرسول العظيم الذي يؤسس مجتمعًا دعائمه الإيمان أراد أن يكون أساس هذا المجتمع الأمانة، والبعد عن الخيانة، والرشوة، والفساد التي بها تنهار المجتمعات وتهوي في قاع سحيق لذا كان رده -ﷺ- لاذعًا متهكمًا مما فعل حتى يكون عبرة لغيره، فلا يتجرأ أحد على فعل شيء مثله.

واختيار النبي لكلماته كاختيار حبات العقد المنظومة « أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك، فنظرت أيهدى لك أم لا؟ فقد حدث مع الصحابي إلباس أو تلبيس للحق بالباطل للحلال بالحرام للهدية الجائزة بالرشوة المقنعة في صورة الهدية ، فأزال النبي -ﷺ- هذا الإلباس عنه بقوله : أفلا قعد في بيت أبيه وأمه، فنظر هل يهدى له أم لا؟

بدأها بالاستفهام التهكمي الذي يثير الشك والشوق لمعرفة ما سيأتي، ثم تأتي الفاء؛ لتطوي الأحداث، وتجري بالزمن، وتخفي كثيرًا من الكلام الذي أراده المتكلم، فعبرت عنه الفاء، ثم نجد تلك اللفظة "قعد" التي تدل على التمكن والتقيد،

(١) أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين دراسة نحوية تداولية، إعداد/ ناغش عيده، ص(٨٤-٨٥)، ط ٢٠١٢م.

واختياره -ﷺ- لتلك اللفظة دون غيرها من مرادفاتها كـ"استقر – مكث – جلس..." وذلك لما فيها من الدلالة على العجز والحبس بخلاف غيرها.

وفي قول الرسول -ﷺ- «في بيت أبيك وأمك» ولم يقل في "بيتك" فكأنه لا بيت له ولا مأوى،فهو والعجز سواء، فذكر الأم في هذا المعرض مؤلم أشد الإيلام، منفر أشد التنفير من قبول مثل هذه الهدايا التي تقدم للولاة، وكأن الجلوس في بيت الأب يأتي بشيء لأن الكسب من عمل الرجل، أما الجلوس في بيت الأم فليس مظنة للحصول على شيء من المال، ولا أمل للجالس فيه في هدية تهدى إليه؛ لأنه يجلس حيث تجلس النساء لا عمل لهن إلا رعاية شئون بيوتهن، وما أشبهه حينئذ بهن في العجز عن الكسب، وفي ضعف الطموح، والرغبة عن الجد والكدح، وكلام الرسول -ﷺ- فيه تعريض شديد موجع، وكأن بهذا الرجل قد تصبب عرقًا واحترق أسفًا، وتمنى أن يتخلى عن كل نصيب له في الدنيا؛ ليفتدي نفسه من سماع هذه الكلمة من رسول الله -ﷺ- (١).

وفي قوله: «ثم قام رسول الله -ﷺ- عشية بعد الصلاة، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم وهذا أهدى لي... ».

لما تعلق الأمر بشيء يخص المصلحة العامة لمجتمعه -ﷺ- لم يتوان الرسول عن توضيحها للجميع حتى لا يقع فيها أحد آخر، وبالرغم من معرفة رسولنا الكريم لصدق عامله إلا أنه -ﷺ- أراد أن يقعد القواعد لكل العمال والولاة... وكل من يتولى أمرًا من أمور المسلمين، فقال الراوي: "ثم قام رسول الله"، "ثم" حرف عطف، عطفت هذه الجملة على ما قبلها عطف رتبي، أي: ترتب الكلام

(١) بتصرف من أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي، د/ نور الدين عتر، ص(٧٦-٧٧)، مركز بحوث السنة والسيرة، العدد السابع، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ١٩٩٤م.

اللاحق على السابق، وخص رسولنا الكريم الظهور للناس وحديثهم في هذا الوقت تحديدًا "عشية" لاجتماع الكثير من الناس في هذا الوقت، ثم حمد الله، وتشهد لجذب الانتباه إليه، وللدلالة على أن ما سيأتي من كلام جد خطير يجب الاستماع إليه والأخذ به؛ لأن هذا ليس أمرًا خاصًا، وإنما هو أمر متعلق بالمجتمع بأسره.

ثم بادر الرسول الكريم السامعين بالاستفهام «ما بال العامل نستعمله... »؛ ليثير انتباههم مرة أخرى، فيكون انتباه بعد تنبيه حتى تيقظ الجميع لما سيبلغه النبي الكريم لهم، فإذا به يقول: «ما بال العامل» أي: ما سبب أخذ العامل الذي نستعمله هدية مقابل عمله، ولم يخص النبي -ﷺ- هذا العامل بنفسه وعينه، وإنما جعل كلامه عامًا يقصد به كل عامل، كل من يتولى أمراً من أمور المسلمين، فالخطاب ليس خاصًا ،وإنما هو عام يوجه لكل من يسمع ويبصر.

كما نلحظ في هذه الجملة الكريمة إطناباً، فبعد أن بدأ الرسول -ﷺ- كلامه مع العامل بإيجاز، أخذ هنا يسهب، ويطنب في الكلام حتى لا يقوم أحد بفعل هذا الأمر؛ لينتظم أمر المجتمع ويسير في أمان، فقال «ما بال العامل نستعمله فيقول هذامن عملكم ، وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه ، فنظر أيهدى له أم لا ؟...».

كان من الممكن أن يقال: "ما بال العامل يقول: هذا لكم وهذا أهدى لي"، ولكن جاء على هذا النحو وبهذه الطريقة حتى لا يدع مجالًا للشك أو السؤال، فالأمر أصبح واضحاً للعيان.

وفي قوله: "نستعمله" دلالة على أن هذا العامل قد حصل على هذه الهدية لكوننا وفرنا له عملاً ، وهذه الكلمة (نستعمله) كانت كلمة (العامل) تغني غناءها، وكلمة (فيأتينا)، وكلمة(فيقول) تغني غناءها، ولو قال ما بال العامل يقول : هذا لكم وهذا أهدي إليَ ، لدل الكلام على المراد دلالة واضحة، ولكن الرسول -ﷺ- يؤكد على

معنى أننا نحن الذين وضعناه في هذا الموضع ، وأنه يفعل فعله ويأتينا ويقول، لأن هذا هو الداء الدوي الذي لم يُضيع حق المسلمين في زماننا إلا هو ...." (١)

ثم قال "فيأتينا" بالفاء التي طوت الأحداث ، وفي الإضافة أيضًا دلالة على أن الهدية هذه من فضلهم عليه ولتوفيرهم عملاً له، فعليه أن يراعي عمله ، ويتقي الله فيه، لذا ساق النبي المعنى على هذا النحو، عسى من يسمع يرتدع ، ويتذكر الخير الذي وُفر له، فيصون الأمانة التي وضع لأجلها.

ولما كانت مهمة النبي -ﷺ- تعليم الصحابة وتصحيح عقيدتهم فقد أراد أن يرسي دعائم مجتمع قائم على التوحيد، بعيدًا عن كل أنواع الشرك من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يقيم موازين أخرى لحياة جديدة، يريد حمل الناس عليها، فالنبي -ﷺ- يريد أن تتمحور حياة العرب حول التوحيد والإيمان بالله والعمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه، لذا نجده عرض كلامه معرض القسم "والذي نفس محمد بيده"

هذه الصيغة من أكثر الصيغ ورودًا في الحديث النبوي للقسم، فيها إقرار النبي -ﷺ- بالربوبية لله تعالى من ناحية، وإشارة إلى أن الأنفس بيده، وهو الذي خلقها، وهو الذي يحييها، ويميتها، وليس لأحد مع الله في ذلك من شيء، ومن ناحية أخرى هو: تطهير لأنفس السامعين من أدران الشرك على مر الزمان ما دام هناك من يسمع ومن يقرأ، وقد استخدمها الرسول للقسم على أمر لم يكن واضحًا عند الصحابة، فأراد النبي-ﷺ- أن يصحح هذه الفكرة، ويبينها للناس[١].

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول/ د: محمد محمد أبو موسى، ص: ٢٧٤

(٢) بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف، أميمة بدر الدين، مجلة جامعة دمشق، المجلد(٢٦)، العدد الثالث + الرابع، ٢٠١٠م، ص(٥٤-٥٦).

وجيء بهذا القسم لتأكيد كلامه -ﷺ- وإلى جانب القسم جاء القصر لتأكيد الكلام أيضًا بطريقة النفي والاستثناء في قوله "لا يغل أحدكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه".

نهى النبي -ﷺ- عن الغلول – وهو الحقد الدفين في القلب– وخص النبي تلك النقطة دون غيرها؛ لكونها جامعة لكل أنواع الشر، ونكر قوله: "شيئًا" للشمول والعموم، حتى يشمل كل شيء وإن دق، وفيه إشارة إلى أن من يتولى أمور المسلمين عليه أن لا يقبل شيئاً، ولا يتهاون في شيء وإن قل، والضمير في قوله "لا يغل منها شيئًا" عائد على كل أمر في يد المسئول من الأمور العامة ، والخاصة بالناس وليس بشيء بعينه.

ثم أراد النبي أن ينقل لنا صورة مشخصة أمام الأعين لمن يفعل هذا الأمر حتى يبتعد عنه كل من يسمع ويرى، تلك الصورة التي عبر بها النبي عن طريق المضارع في قوله: «يحمله على عنقه» لاستحضار تلك الصورة في ذهن السامع، وقد جمع النبي ما يأخذه العامل في قوله: "شيئًا"؛ لذا أتى بها نكرة لتكون عامة ، وخص العنق بالذات "يحمله على عنقه"؛ وذلك لأنه موضع السمات يعنى العلامات وموضع القلادة وغير ذلك... ثم قسم ما يأخذه على أنواع في قوله: «إن كان بعيرًا جاء به له رغُاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر» وهذا التقسيم جعل المعنى أكثر استيفاء، وحسن التقسيم وإن كان محسنًا معنويًا يعود تأثيره في المقام الأول على المعنى من حيث تجليته وإيضاحه، فإنه لا ينكر دوره المؤثر على الصياغة الأسلوبية للألفاظ، وتعاونه الواضح مع موسيقى الألفاظ والعبارات في إضفاء نغم رائع على كلمات وعبارات الحديث الشريف، كما أنه يوحي بثقل الجرم وعظم الإثم الذي لا يستطيع أن ينهض به صاحبه حين يرتكب إثماً يلبسه ثوب الحق واتباع السنة في قبول الهدية .

كما نلحظ التكرار الذي اعتمد عليه الرسول -ﷺ- في قوله «جاء به» فكررها أكثر من مرة، وكأن هذا الشيء الذي فعله سيظل ملازمًا له، وفيه دلالة على قبح ما فعل.

وقد حدد النبي -ﷺ- مع كل شيء مما ذكر أصواتًا محددة كما في قوله "رغاء – خوار – تيعر" للدلالة على أن أمرهم سيكشف، ويفتضح بين الناس .

هذا وقد فصل قوله: «وإن كان بعيرًا جاء به له رغاء» وما بعدها عما قبلها لكمال الاتصال فهذه الجمل وضحت الجزاء المراد فهو بدل بعض من كل، فالجملة الأولى مبهمة وضحتها ما بعدها.

ثم ختم النبي -ﷺ- حديثه الشريف بقولته المشهورة: «فقد بلغت» تأكيدًا منه-ﷺ- على إيصال ما بلغ من رب العالمين.

النموذج الثالث

روى الإمام البخاري: حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله[1] -رضي الله عنه- قال النبي -ﷺ- : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس أجل أن يحزنه»[2].

المعنى العام للحديث والتحليل البلاغي:

مما جاءت به الشريعة: تأليف قلوب المسلمين بعضهم على بعض، ومن هذا: نهي النبي -ﷺ- عن تناجي الرجلين، وهو أن يكلم الرجل الآخر سرًا بحضور الآخر، وهذا إن كانت النجوى في مباح، ثم بين علة النهي، فقال: أجل أن يحزنه، أي من أجل أن ذلك يحزنه، لما قد يوسوس له به الشيطان من أنهما يتناجيان للإضرار به، أو يحزن لاختصاص غيره بالمناجاة، وبين أن النهي يزول إذا كانوا في جماعة وخلطة بالناس لزوال الريبة.

وقد اكتسى هذا الحديث معناه، وهو الحفاظ على مشاعر الآخر من خلال استهلاله -ﷺ- "إذا كنتم ثلاثة" الذي أداته "إذا"، وهذا الأسلوب ملائم لمقام الحديث، وهو الترغيب والحث على فعل الخير، واحترام ومراعاة شعور الآخرين، إذ القيد ببنائه التركيبي فيه من وسائل الإقناع ما يؤثر في المخاطب، ويحثه على الاستجابة للمقيد، تطلعًا لما في القيد من الثواب، فالاستهلال بالشرط فيه تشويق للسامع، وإثارة لرغباته في معرفة المقيد "جواب الشرط" وذلك قوله: "فلا يتناجى...".

(١) هو عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، ينظر فتح الباري (٣٢/١٨).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الاستئذان - باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا باس بالمسارة والمناجاة حديث رقم (٦٢٩٠).

فإذا ما ساقه النبي -ﷺ- أتى على نفس السامع، وقد استبد بها الشوق حتى بلغ منتهاه، فيؤثر فيها، فيؤتي خطابه ثماره المنشودة، فـ"الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح"(١).

وجاء الاستهلال بـ"إذا" لإفادة تحقيق الوقوع، وفعل الشرط "كنتم" أتى ملائمًا للسياق، مطابقًا للمقام فلا يسد غيره مسده، ولا يقوم مقامه؛ لأن الخصوصية الدلالية للفعل "كنتم" ليست لغيره، فهي تؤكد تحقق الوقوع ، وتقييد ذلك بوقت الماضي وحصوله في الحاضر إيذان بأن هناك أمرًا مهمًا يجب التنبه له، فهو يتكرر من حين لآخر.

ولا يخفى تعبير النبي -ﷺ- بالعدد "ثلاثة" دون غيره من الأعداد، وسر التعبير له دون غيره هو "أن أول الجمع ثلاثة"، وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد، ولا عشرة ولا ألف مثلًا؛ لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى، وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه(٢).

وقد جاء جواب الشرط "فلا يتناجى رجلان" أسلوبًا خبريًا لفظًا، إنشائيًا معنى، «وقد جاء النفي هنا على سبيل النهي؛ وذلك لأن الأمر فيه لا يحتمل التساهل، وإنما هو جانب هام من جوانب العلاقات الاجتماعية لابد من حسم الحكم فيه بهذا النهي»(٣).

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق، تح/ محمد محي الدين عبد الحميد، ج(١) ص(٢١٧)، دار الجيل، ط(٥)، ١٩٨١م.

(٢) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، أبو بكر القرطبي، تح.د/ عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ط أولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص(١٩٢/١٧).

(٣) أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالتها البلاغية، د/ عامر بن عبد الله الشبيتي، (٣٢٢،٣٢٣/١)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط أولى، ١٤٢٥هـ.

ومجيء الفعل "تناجى" على صورة المضارع يرسم لوحة محسوسة للموقف من تجاذب أطراف الحديث سرًا بين شخصين دون الآخر؛ مما يؤدي به إلى الشعور بالبغض والحقد، فقد أضفى الفعل بتركيبة ذلك وما فيها من زيادة مبني للزيادة في الدلالة، إذ في "يتناجى" معنى تجاذب أطراف الحديث بين أكثر من شخص مما يساعد على التسرية عن النفس، وقد خصت تلك الصيغة "تفاعل" تناجي؛ لأنها تدل دائمًا على خروج الحدث من دائرة الفرد إلى دائرة الجماعة(١).

" فتجاذب أطراف الحديث سراً بين شخصين فيه تطرية ونشاط للنفس ، وبث لروح الاتصال بينهما ، مما يساعد على التسرية وعدم الشعور بالوقت ، لاسيما في وقت السفر، ولا ريب في أن حرمان الشخص الثالث من ذلك يغرس في نفسه التدابر عنهما والبغض لهما" (٢)

وبهذا تسهم المفردة ببنائها على هيئة خاصة في دلالة النظم بإثراء معناه، يقول ابن الأثير: «واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولًا؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه»(٣) .

(١) شرح أحاديث من صحيح مسلم، أ.د/ محمد أبو موسى، (٦٧٧/٢).
(٢)الجملة تعليلية في الحديث النبوي في صحيح البخاري مواقعها وأسرارها البلاغية ، د/ مستور عبد الفضيل ،ص١٨٠
(٣) المثل السائر في الأدب الكاتب والشاعر، ج(٢) ص(١٩٧).

ثم نكر -ﷺ- قوله: "رجلان" ؛ وذلك لإفادة العموم والشمول، فالأمر يشمل جميع الناس، كما أنه من باب التغليب؛ لأن الحكم ينسحب على النساء أيضًا، ثم علل الرسول الكريم نهيه عن هذا الأمر، وبين سبب ذلك بقوله: «حتى تختلطوا بالناس أجل أن يحزنه» ، ففيها دلالة قاطعة على رحمة الله ورسوله الكريم بأمته، فقد أباح الإسلام الحديث وقت الاختلاط، ، أما التحريم فهو عند عدم الاختلاط، مما يؤثر على نفسية الشخص الموجود، وما دار بخلده من شكوك؛ لذا عبر بلفظة "حتى" الغائية التي تبين ثقل المناجاة، وطولها على من هو خارج المناجاة، وكيف تمر عليه تلك اللحظات والدقائق؛ لذا أعطى لنا الإسلام حلًا، وهو إباحة ذلك وقت الاختلاط، فقوله -ﷺ- "تختلطوا" بالمضارع للدلالة على التجدد والاستمرار.

وقوله : " أجل أن يحزنه" تعليل للنهي عن التناجي ، يبرز حرصه -ﷺ- على التنفير من كل ما يبعث على الحزن والأسى في قلوب المؤمنين مما يوغر الصدور، ويبعث على الشقاق، حتى وإن كان ذلك مجرد هاجس أو توهم وقع في صدر المستبعد من حديث المتناجيين.

وفيه أيضًا إيجاز بالحذف إذ التقدير "من أجل أن يحزنه" حيث حذف "مِنْ" وذلك لفهمه من السياق، ففي الأسلوب إيجاز بحذف "من"[1] وللإيجاز مزية رائعة من مزايا التعبير، إذا اقتضاه المقام، فـ "أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه"[2].

(١) عمدة القاري، (٢٢/٢٦٨).

(٢) البيان والتبين، ج(١) ص(٩٧).

وتعابير النبي الكريم -ﷺ- يغلب عليها الإيجاز، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم[١] ، وقد عبر بالمضارع في قوله: "يحزنه"؛ للدلالة على مدى الحزن الذي يسيطر على الشخص الذي يبعد عن الحديث، ولبيان أثر بشاعة هذا المنظر، وليستحضره السامع في ذهنه حتى لا يتأتى منه مثل هذا الأمر.

ولبيان خطورة هذا الأمر أسند رسولنا الكريم "يحزنه" إلى فعل التناجي، إسنادًا مجازيًا لعلاقة السببية، فالحزن لا يسند إلى التناجي حقيقة، وإنما أسند إليه لكونه سببًا فيه.

والإشارة في قوله: "ذلك أن يحزنه" في رواية أخرى، عبر باسم الإشارة التي للبعيد؛ وذلك للتحقير من هذا الأمر وبيان بشاعته، ولبعد ذلك عن الصواب ومروءة الرجال، ولما فيه من سوء الظن بالمنفرد عن الحديث ، وجاء الكلام باسم الإشارة "ذا" لتمييز المشار إليه أكمل تمييز؛ لأن غرض الكلام معقود عليه، وهو بشاعة التناجي وخطورة هذا الأمر، وإنما خصت الذال بالدلالة على الإشارة ؛«لأنها من طرف اللسان، والمبهم مشار إليه، فالمتكلم يشير نحوه بلفظه أو بيده، ويشير مع ذلك بلسانه، فإن الجوارح خدم القلب، فإذا ذهب القلب إلى شيء ذهابًا معقولًا ذهبت الجوارح نحوه ذهابًا محسوسًا، والعمدة في الإشارة في مواطن التخاطب على اللسان، ولا يمكن إشارته إلا بحرف يكون مخرجه من عذبة اللسان»[٢].وبهذا نرى أن الإسلام نهى عن التناجي في الحالات التي توقع

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص(١٩٣).

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج(١) ص(١٨٥).

الريبة وتزعزع الثقة، وهذا إشارة إلى روح التعاون والجماعة المسلمة، والترابط والأخوة والمحبة في الله وفي الإسلام[1].

(١) الإيجاز والإطناب في الحديث النبوي الشريف دراسة تحليلية تطبيقية في صحيح البخاري، للباحثة/ درية يسن عبد الرحمن أحمد، ص(١٨٠)، رسالة ماجستير في البلاغة والنقد جامعة أم درمان – كلية اللغة العربية – السودان، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

المبحث الثالث
من أسرار البلاغة النبوية في الشراكة في المصلحة العامة ورعاية العدل واحترام الحق في إدارة شئون الناس وسياسة مصالحهم

النموذج الأول

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «إياكم والجلوس على الطرقات، فقالوا: ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذ أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق؟، قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر»(١).

المعنى العام للحديث:

إن الشريعة الإسلامية جاءت بالعديد من الضوابط والآداب والمبادئ والتعاليم التي تنظم مناحي الحياة كافة، سواء العامة على مستوى المجتمع أو الخاصة على مستوى الأفراد، وتأتي آداب الطريق على رأس المبادئ والتعاليم التي تتعلق بالحياة العامة للمجتمع ككل، حيث شدد الإسلام الحنيف على ضرورة مراعاة حقوق الطريق وعدم إلحاق الأذى -بأي شكل من الأشكال- به، وقد اعتبر منفعة عامة لا يجوز بأي حال من الأحوال الاعتداء، ونلحظ في هذا الحديث دعوة صريحة من النبي -ﷺ- لمراعاة آداب الطريق وحقوقه، وقد وضعت السنة النبوية مبدأ عامًا يكفل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها على الصاعدات، (١٣٢/٣) برقم (٢٤٦٥)، وفي كتاب الاستئذان / باب قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ [النور:٢٧]، (٥١/٨) برقم (٦٢٢٩)، صحيح مسلم - كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، (١٦٥/٦) برقم (٢١٢١)، وفي كتاب السلام/ باب من حق الجلوس على الطريق رد السلام (٢٧) برقم (٢١٢١).

صيانة الطرق، والمحافظة عليها ورعاية حقوقها وحددها النبي في أربعة حقوق وهي:

أولًا: غض البصر، وهي وسيلة للكف عن المعصية، حيث إن المعصية تعد سهمًا مسمومًا، فالنظرة هي الخطوة الأولى في طريق الجرم الأكبر.

ثانيًا: كف الأذى، وهو من أعظم آداب الطريق التي حث عليها الإسلام؛ لأن الأذى مصيبة عظيمة، سواء أكان بالقول أم بالفعل، وقد جاء في الحديث عن حذيفة بن أسيد أن النبي -ﷺ- قال «من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم»[1]، سواء كان هذا الأذى بالسخرية بالناس أم الاستهزاء بهم أم التدخل فيما لا يحق له التدخل به أم إعاقة سير المارة.

ثالثًا: رد السلام، وهو من حقوق الطريق التي تشيع الخير بين الناس، وتزيد حدود التعارف بينهم.

رابعًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، فمن أراد أن يجلس في الطريق فعليه أن يكون متأدبًا بآداب الشرع، فالإسلام توعد من لا يراعي آداب الطريق، وينتهك حقوقه بالخزي في الحياة الدنيا والآخرة.

التحليل البلاغي :

بدأ الرسول -ﷺ- هديه الشريف مخاطباً السامعين بأسلوب التحذير(إياكم)، و(إياكم) ضمير منفصل في محل نصب مفعول به لفعل محذوف

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٧٩/٣) رقم (٣٥٠)، من طريقين عن شعيب بن بيان عن عمران القطان عن قتادة، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد.

وجوباَ تقديره (أحذر) لتنبيه المخاطبين إلى أمر مذموم خطير، جاء به الشرع الحنيف ليحذر منه، ويستقبحه ويستنكره، ألا وهو : الجلوس في الطرقات .....ولعل هذا الأسلوب أبلغ في هذا المقام ، لما يحمله من تحذير وتنبيه يجعل المتلقي يقف، ويحذر من القيام به .

" فتقديم صيغة التحذير في الكلام إذا طرقت سمع السامع "إياكم"، انتفض من شواغله، وألقى انتباهه، وبخاصة إذا عرف في محذره أو مغريه حرص الناصح الأمين " [1] فما بالكم إذا كان المحذر هو النبي -ﷺ- وذلك من شدة حرصه على لفت الأنظار إلى تهذيب سلوك الإنسان في الحياة ، وفي علاقاته مع الآخرين، فالطرق ملك للجميع، يجب عليهم مراعاة هذا الحق وصيانته سدًا للذرائع والفتن ، وقد جاء أسلوب التحذير النبوي مجملاَ "إياكم والجلوس في الطرقات "، وفي رواية مسلم "اجتنبوا مجالس الصعدات"[2] وفي رواية "على الطريق" [3] دون ذكر سبب التحذير، وذلك كي يجذب القلوب إليه، فيحملهم على إعمال العقل والفكر، وقوله: "على الطرقات "، (على) تفيد الاستعلاء والإشراف والإرتفاع، يخلع على المعنى معنى العلو والإرتفاع، ويرمي بكثير من البدائع واللطائف، ومقصوده هنا الأماكن العالية المرتفعة، والمعاني الواضحة التي لا غنى للناس من المرور بها .

(١) بتصرف من الحديث النبوي الشريف من الوجهه البلاغية / كمال عز الدين، ط : دار اقرأ ، ط أولى ص ١٤٠/١٩٨٤م .

(٢) صحيح مسلم ٣/ ٧٥، ٧٦، الصعدات هي : جمع صُعُدٍ وصُعُدُ، مأخوذ من الصعيد وهو التراب ، ينظر لسان العرب مادة صعد.

(٣) سنن أبي داوود / كتاب الآداب / باب الجلوس بالطرقات ٢/ ٦٧١

"وفي هذا الحديث تصعيد بطريق الحوار حيث بدأه الرسول -ﷺ- بأمر غريب يستوجب سؤالاَ ، ثم يجيب عنه بما يثير سؤالاً، حتى ينتهي إلى ما يريد غرسه في الصدور من حب شيء وإجلاله ، أو المهابة من شيء والنفور منه "(١).

ولما بدأ النبي -ﷺ- كلامه بالنهي والتحذير دون إبداء أسباب ، كان هذا أدعى لقول الصحابة "ما لنا بد"، أي: لا نستطيع الاستغناء عن الجلوس فيها، ثم عللوا ذلك بذكر السبب "إنما هي مجالسنا نتحدث فيها " على طريقة القص، وفيها بيان لأهمية هذه المجالس ودورها وضرورتها في حياتهم، وما يصحبها من قضاء حاجات واجتماعات وغيرها، من الأمور الحياتية التي لابد منها، وهذا من التلطف بذكر السبب في عدم الامتثال للأمر عند الضرورة، فبين لهم -ﷺ- سبب النهي بما في الطريق من حق وأمانة تثقل على كثير من الناس من غض البصر وكف الأذى ورد السلام، وقد سلك القصر طريق (إنما) دون طريق أخر من الطرق التي كان من الممكن أن يؤدي بها المعنى؛ وذلك راجع لما لهذا الطريق من سمات وخصوصيات دقيقة، تجعله ينفرد من بين طرق القصر بالدخول على معانٍ خاصة، فـ (إنما) تدخل على معان مأنوسة قريبة من النفوس، فلا تدخل على الحقائق الغريبة والأفكار البعيدة، فـ"إنما" أداة رقيقة هامسة، لا تنزعج النفوس لما دخلت عليه، ولا ترفض ما جاء في وعائها(٢).

ولذلك فـ"إنما" تأتي في الأخبار التي يدعى أنها من الوضوح بمكان، فلا يجهلها المخاطب، ولا يدفع صحتها، أو لما ينزل هذه المنزلة(٣).

---

(١) الحديث النبوي من الوجهه البلاغية ص٢٥٦

(٢) دلالات التراكيب، د/ محمد أبو موسى، ص(١٤٨).

(٣) دلائل الإعجاز، ص(٣٣٠) وما بعدها.

وقد تم الفصل هنا بين الجمل لكمال الاتصال، لكون الجملة الثانية بدلًا مطابقًا فإن قول الرسول «إياكم والجلوس على الطرقات، فقالوا ما لنا بد» فصل فيه بين جملة "مالنا بد" وجملة "إنما هي مجالسنا" لأن الجملة الثانية شارحة وموضحة وأوفى بتأدية المعنى من الأولى؛ لكونها بدل كل، لذا ترك العطف بين الجملتين.

وإنما خص المجالس ونص عليها؛ لكونها أدل على المقصود، وألزم للحجة مع التفصيل من غير إحالة على علم الرسول بحاجتهم إليها، ولها ارتباط خاص بحياتهم وضروريات معاشهم، ومن ثم يتحقق بالجملة الثانية من الغرض ما لم يتحقق بالأولى، والغرض البلاغي هنا من الفصل هو حمل الرسول على قبول عذرهم، وقبول تبريرهم البشري وحاجتهم الماسة للطريق في مناقشة قضاياهم الحياتية، وليس أدل من قبول الرسول لعذرهم إلا قوله -ﷺ- بعد هذا التعليل: "فأعطوا الطريق حقه" ؛ لبيان أن أمره كان رحمة بهم من ثقل أمانة الطريق .

ويجوز أن يكون الفصل للاستئناف البياني "شبه كمال الاتصال" على تقدير سؤال من الرسول للمخاطبين مؤداه: لماذا مالكم عنها بد؟ فأجيب "إنما هي مجالسنا"، وبالرغم من ذلك، فقد استبعد البلاغيون هذا النوع –بدل كل من كل– لأنه لا فرق بينه وبين التوكيد إلا بقصد نقل النسبة من الجملة الأولى إلى الثانية، وهذا النقل لا يتحقق في الجمل التي لا محل لها من الإعراب، والتي نحن بصددها[1].

فالمعول عليه عند البلاغيين قسمان فقط من أقسام البدل، وهما: بدل بعض من كل، وبدل الاشتمال.

(١) محاضرات في علم المعاني، (٢/٢٣١)، د/ عبد الهادي نصر، د/ عبد العزيز مخلوف، ط الشاهد، ٢٠٠٠م وانظر التوظيف السياقي للفصل البلاغي نموذجًا في صحيح البخاري، صفاء علي عبد الغني.

ثم بين لهم النبي -ﷺ- إن كان لا محالة من الجلوس لقضاء الحوائج "فأعطوا الطريق حقه" بادرهم النبي بحرف العطف "الفاء" التي دلت على سرعة وتعاقب للحدث وفعل الأمر "أعطوا" الدال على النصح والإرشاد، حيث ينصحهم النبي -ﷺ- ويرشدهم لفعل الصواب، وفي "الفاء" أيضًا معنى السببية ، فنصيحة الرسول لهم سببُ في أن تقوم النفس بعملية حشد في اتجاه سماع نصائح الرسول -ﷺ- وتنفيذها.

وقوله: "حق الطريق" الحقوق لغة: جمع "حق" وهو مصدر قولهم "حق الشيء" أي: وجب وثبت ولزم، مأخوذ من مادة "حقق" وهو خلاف الباطل(١).

أما عن تعريف حقوق الطريق في السنة النبوية: فهي عبارة عن مجموعة من القواعد والمطالب والآداب التشريعية التي جاءت بها السنة النبوية، لتنظيم علاقات الناس بالطريق، ومرافقه، وسالكيه على جهة الوجوب والإلزام أو الاستحباب(٢).

ثم كان جواب الصحابة: "وما حق الطريق" بوضع الظاهر موضع الضمير، حيث كان من الممكن أن يقال "وما حقها"؛ وإنما آثروا التعبير بالاسم الظاهر، وذلك لكمال العناية بالأمر وزيادة تمكينه وتقريره في نفس السامع.

(١) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تح/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط(٤)، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص(١٤٦٠-١٤٦١) ، وانظر: مقاييس اللغة لابن فارس، تح/ عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، (١٥/٢)، وانظر: المصباح المنير للفيوفي (١٤٣/١)، لسان العرب، ط(٣)، ١٤١٤هـ، (٢٥٥/٣) ، وانظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، ص(٢٤٦).

(٢) الأحاديث الواردة في حقوق الطريق وتطبيقاتها المعاصرة دراسة موضوعية في ضوء السنة النبوية، د/ محمد محمد علي أبو زهو، ص(٤٥٠).

فكان جواب الرسول -ﷺ- عن سؤالهم هذا بعد هذا الإبهام بتفصيل ما أجمل، فقال -ﷺ- : «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر».

فلو نظرنا لهذه الحقوق التي ذكرها المصطفى -ﷺ- لوجدنا منها ما يعود على الفرد، ومنها ما يعود على الجماعة، فما يعود على الفرد "غض البصر" وما يعود بالنفع على الجميع "كف الأذى، ورد السلام، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر".

بين النبي الكريم -ﷺ- من خلال ذكره لهذه الحقوق علة نهيه -ﷺ- وذلك للتعرض للفتن، والإثم بمرور النساء وغيرهن، وقد يمتد نظر إليهن أو فكر فيهن، أو ظن سوء فيهن أو في غيرهن من المارين، ومن أذى الناس باحتقار من يمر أو غيبة أو غيرها، أو إهمال رد السلام في بعض الأوقات، أو إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك من الأسباب التي يسلم منها حين يسعه بيته، ويدخل في الأذى أن يضيق الطريق على المارين، أو يمتنع النساء ونحوهن من الخروج في أشغالهن بسبب قعود القاعدين في الطريق، أو يجلس بقرب باب دار إنسان يتأذى بذلك، أو حيث يكشف من أحوال الناس شيئًا يكرهونه[1].

وقال الحافظ ابن حجر: « وقد تبين من سياق الحديث: أن النهي عن ذلك للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذي عليه، وأشار بغض البصر: إلى السلامة من التعرض للفتنة بمن يمر من النساء وغيرهن، وبكف الأذى: إلى السلامة من الاحتقار

(١) شرح النووي على مسلم، (٣١٩/١٤).

والغيبة ونحوها، ويرد السلام: إلى إكرام المار، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أي استعمال جميع ما يشرع، وترك جميع ما لا يشرع .....»[1].

ونكر قوله (بد) أي: مفر؛ وفي ذلك تنبيه لعدم استغنائهم عن الطريق في كل أمورهم، لذلك نجده -ﷺ- قدم الجار والمجرورعلى قوله :(بد) تنبيهاً على أهمية الطريق عليها وعدم استغنائهم عنها .

وليس النهي محصورًا في الجلوس فقط، بل يدخل فيه الوقوف والمشي في الطريق لغير حاجة؛ لأن الحكمة في كل سد الذرائع؛ لأن التعرض للمحرمات يوقع فيها[2]، وليس النهي مقصوراً على الجلوس ، وإنما يشمل كل احتباس في الطريق يكون ذريعة إلى وقوع المنهي عنه فهي من باب المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ، حيث أطلق الجزء وأراد الكل .

وبهذا الإيضاح الذي قام به النبي للنهي عن الجلوس على الطرقات جعل المعنى «يتمكن في الذهن فضل تمكن؛ لأن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام، تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح»[3].

كما يلاحظ التصوير في قوله: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام ... » حيث شبه الطريق بإنسان له حق واجب قائم على المطالبة به، لا ينفك ولا يبرح

(١) فتح الباري، لابن حجر (١١٣/٥).
(٢) فتح النعم شرح صحيح مسلم، للدكتور/ موسى شاهين، (٤٠٦/٨).
(٣) الإيضاح للقزويني (١٩٦).

عنه على سبيل الاستعارة المكنية ، وقد أفاد هذا التصوير «تأكيد المعنى، وإلباسه ثوب المبالغة مع إبرازه في صورة محسوسة، ثم التعبير عنه بألفاظ موجزة»(١).

والمراد هنا بقول الرسول -ﷺ- ألا يوقع الفرد نفسه موضع الفتن، وألا يلزم نفسه ما لا يطيق، حتى لا يتأذى المارة في الطريق؛ لذا نهى الرسول عن الجلوس على الطرقات صونًا لحرمة الطريق إلا للضرورة، ومع اتخاذ الإجراءات التي تقي الإنسان من الوقوع في المخاطر، والتي تعمل على حماية المجتمع.

وقد عبر الرسول -ﷺ- بتلك الصيغ (غض البصر وكف الأذى ورد السلام ...) بدلاً من غيرها، حيث قال الرسول الكريم (غض البصر) بدلاً عن (الإبصار) فقد عبر بالآلة عما يعمل بها ويصنع بها (البصر)، فإغلاق الآلة عن العمل أبلغ من العمل عما ينتج بها من إبصار سواء كان خيراً أم شراً، كما قال : -ﷺ- (كف الأذى) بدلا (لا تؤذوا)

فالكف أي الابتعاد عن أذى الطريق كأن يكون في جانب والأذى في جانب، فالنبي -ﷺ- أمر المؤمن أن يكون كافًا عن الأذى، وليس واقعاً فيه فحسب، بأن يجعل في جانب وأن يكون الأذى في جانب آخر لا يقربه ولايواقعه .

كما أن في قوله -ﷺ- : «أمر بالمعروف ونهي عن المنكر» ذكر للعام بعد الخاص ،أي: حكم خاص للطريق ومراعاة آدابها، كما عبر بالجملة الاسمية التي تفيد

(١) القرآن والصورة البيانية، د/ عبد القادر حسين، الناشر، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص(٢٠٠).

تأكيد المعنى، وتدل على معنى أوفى مما تدل علي الجملة الفعلية؛ ولذلك كان تأثير الجلمة الاسمية أقوى من تأثير الجملة الفعلية»[1]، وذلك لدلالتها على الثبوت والدوام.

(١) البلاغة العالية، علم المعاني، د/ عبد المتعال الصعيدي، ص(٥٦)، المكتبة السلفية، بدون.

النموذج الثاني

عن أبي خراش عن بعض أصحاب النبي -ﷺ- قال: قال رسول الله -ﷺ- : «الناس شركاء في ثلاثة: في الماء، والكلأ، والنار»[1].

معنى الحديث:

الإسلام دين التسامح والتعاون، دين الوسطية والاعتدال، لا سيما فيما فرض الله – سبحانه وتعالى– على عباده المؤمنين، ومن مظاهر هذا التيسير والتعاون في الإسلام عدم احتكار المنافع العامة، وضرورة الشراكة فيها مراعاة لأحوال الناس المختلفة، فلا احتكار في ماء ولا كلأ ولا نار، فالماء شركة بين الناس ما لم يكن أحد قام باستخراجه في ملكه ، مثل الآبار الموجودة في أملاك الناس ، وكذلك الحطب والكلأ لا يُمنع منه الناس في أماكن وجوده "إلا للمصلحة" ، فهم فيه شركاء.

التحليل البلاغي:

أول ما يلاحظ في هذا الحديث الشريف هو بناؤه على التشويق والإثارة، وإيقاظ انتباه السامعين لجذب أسماعهم إلى ما سيأتي من أمور وأخبار يجب وضعها في الاعتبار، والأخذ بها والعمل عليها، لذا ساق النبي الكريم الأسلوب في سياق العموم من خلال قوله: "الناس" ، وكما هو معروف بأن خطاب النبي -ﷺ- يتسم بالعموم ليشمل جميع الأفراد، حيث لم يقتصر على فرد معين دون غيره، فقوله: "الناس" إشارة إلى عموم الناس، فمصلحة الناس والجماعة مقدمة على الفرد، و"أل" في "الناس" للجنس، وذلك لاستغراق أفراد الجنس دون تخصيص فئة معينة، حيث أطلق عليهم النبي لفظ "الناس"؛

(١) رواه أحمد وأبو داود ، ورواه ابن ماجه / ص: ٣٦٥ / باب الناس شركاء في ثلاث وشرب الأرض العليا قبل السفلى إذا قل الماء أو اختلفوا فيه

لأن من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئًا هو الذي يستحق أن يكون من جنس الناس وليس غيره، هذا بالإضافة إلى ما يشير إليه «الجذر اللغوي للفظ "الناس" الذي قيل: إن أصله من ناس ينوس إذا اضطرب وتذبذب» [(١)].

وهذا الاضطراب والقلق مناسبان تمامًا لمقام الشركة وعدم الإنفراد بالمصلحة العامة.

فهو لفظ عام يصدق على المسلمين وغيرهم، لكن دلالة المقام تصرفه إلى المسلمين وحدهم، ، ففي قوله -ﷺ- الناس مجاز مرسل لعلاقة العموم، وتبدو بلاغة هذا المجاز في أنه يوحي بأن «المؤمنين هم الناس الذين ينبغي أن يكونوا أناسًا، وقد وصف القرآن الكريم غير المؤمنين بأنهم كالأنعام، أو أضل، ونفى عنهم السمع، والبصر والفؤاد؛ لأنهم لا ينتفعون الانتفاع الحقيقي بشيء من ذلك»[(٢)].

ويؤيده قول الراغب: «والناس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجاوزًا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو وجود العقل، والذكر وسائر الأخلاق الحميدة، والمعاني المختصة به، فإن كل شيء عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه»[(٣)].

«والحقيقة أن لفظ "الناس" يومئ –هنا– بإيحاءات جمة، وومضات مهمة، حيث ينشر هالة من التفخيم والاحتفاء قد أرادها النبي -ﷺ- إيحاء بأن بيانه

(١) لسان العرب، مادة (نوس).

(٢) بتصرف من : من أسرار البيان النبوي، د/ أحمد محمد علي، ص(٧٧]، دار الصحوة، ط(١)، ١٤٠٦هـ.

(٣) المفردات في غريب القرآن، ص(٥١١)، (نوس).

المنتظر لأجناس البشر أجمعين، وله أثره في إصلاح المجتمعات كلها مسلمة وكافرة، غابرة وحاضرة»[1].

وفيه إشارة إلى عالمية الدعوة المحمدية التي يعم فيها الاستقرار والأمان من خلال إتباع هديه وسنته الشريفة وتوجيهات نبي الإسلام -ﷺ- هي حياة الأمة، وبدونها تكون أمة مريضة تعتريها الأوجاع والأمراض.

كما نلمح من ورائها ما يجب على ولي الأمر من أن يغرس فعل الخير في النشأ الجديد، فلا يقتصر دوره -ﷺ- على دعوته -ﷺ- للناس لفعل ذلك، بل يتعداه إلى غرسه في أعماق الأجيال القادمة التي ستحمل اللواء، فيربيهم على مساندة الغير والمحتاجين والتيسير على المعسرين.

ثم تأتي كلمة "شُركاء" بصيغتها "فُعلاء" التي تدل على المفاعلة والمشاركة والعمل من أجل تحقيق تلك المشاركة، بالإضافة إلى ما في الكلمة من زيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، ولنتأمل الدلالة الصوتية لتلك الكلمة والتي جسدت وقع هذا الحديث وصداه في نفسه -ﷺ- حيث نرى الانتقال بين مخارج هذه الكلمة من تباعد، فأصوات الكلمة تختلف في مخارج حروفها، فمنها ما هو من الوسط أو طرف اللسان أو الحلق وأقصى الحلق فأصواتها متباعدة، هذه المباعدة المقصودة للعبد «حيث أراد الإسلام أن لا يكون هناك تباعد، بل لابد من التقارب والتلاحم والتشارك في كل شيء، ولو قليل، فصور بالبعد الصوتي البعد المعنوي بين الناس بعضهم بعضًا، وكأن الإسلام يحاول أن يلم شتات الناس، ويزرع بينهم

(١) الخصائص البلاغية في حديث النبي عن صور الإيذاء بين المسلمين "دراسة في الصحيحين"، ص(١١-١٢)، رسالة دكتوراه، كلية ايتاي، للباحث د/ حسن الشحات عبد الله الصعيدي، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

المودة والرحمة والألفة بين القريب والبعيد، فالبعيد يقرب، ويلم شتاته، كما فعلت اللفظة جمعت شتات المعنى مكونة من أصوات ضم بعضها بعضًا على اختلاف مخارجها، فصارت جسدًا واحدًا معبرًا، وكذا حال الناس لابد من اجتماعهم في كل شيء، وعلى كل شيء، خيرًا فخير، وإلا فلا، وهكذا نجد كلمة من حيث الدلالة على معنى قد تتميز عن غيرها أحيانًا، والذي يميزها أن تفي بالمعنى المراد، وأن تشيع جوًا من المتعة بخصائصها الدلالية ومكانها في الجملة»[1].

وكلام النبي -ﷺ- قيل لتصير به المعاني إلى حقائقها... كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان[2].

وهكذا نجد اللفتة اللغوية بتلك الصيغة تفتح بابًا من أبواب السلام والتصالح مع الآخر وحب الخير للغير كما يحبه لنفسه، وكأن الإسلام لا يقبل من المسلم أن ينفرد بشيء دون غيره، فالمصلحة عامة ، والمنفعة مشتركة بين الجميع، فيسود الأمن والأمان داخل المجتمع الإسلامي، وهكذا جسدت لنا تلك الكلمة ما يجب أن يكون عليه كل مسلم من حب للغير والعمل على توفير الاستقرار والأمان في المجتمعات.

وقد عبر النبي الكريم بقوله : (الناس شركاء) بدلاً من قوله : (اشتركوا)، أي: عبر بالخبر بدلاً من الأمر؛ وذلك ليعلم الناس أن هذه الثلاثة في أص خلتها ملكية عامة من نعم الله ــ سبحانه ـ على عباده، ينتفع بها جميع الناس، وأن ما طرأ عليها من ملكيات خاصة إنما هو عوض عما أنفق في الانتفاع بها من الشبكات وغيرها، وما يصلح الأرض من الإنبات والزرع ؛ولذلك لم يقل -ﷺ- (اشتركوا)، فالأمر شروع وبدء في الشيء، وكأن ماقبله يخالف ما بعده .

(١) الحوار في الحديث النبوي، ص(١٢٦).
(٢) وحي القلم، ج(٣) ص(١٧-١٨).

ونلحظ في هذا الحديث الشريف أنه بني على الإيجاز، فبنيته التركيبية جاءت موجزة، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني، فاض بها صاحب ذهن ثاقب، وعقل واع، قادرة على أداء المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، «من كمال تلك النفس العظيمة، وغلبة فكره -ﷺ- على لسانه قل كلامه، وخرج مقيدًا في ألفاظه، محيطًا بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها، فلا ترى من الكلام ألفاظًا، ولكن حركات نفسية من ألفاظ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه، وخلص أسلوبه، فلم يقصر في شيء، ولم يبالغ في شيء»(١).

من هذا الإيجاز قوله -ﷺ- «الناس شركاء في ثلاث» فأثار شوقًا لدى السامع لمعرفة هذه الثلاث، ثم أخبر رسولنا الكريم بقولة «الماء، الكلأ، النار»؛ إذ تقدير الكلام شركاء في الماء، شركاء في الكلأ، شركاء في النار، «فحذف المسند إليه؛ لفهمه من السياق، فالألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة، يلحظها الحس البصير، حينما يوجه إليها انتباهه، وحينما يستدعي في خياله صورة مدلولها»(٢).

وقد تضافر مع الإيجاز الجمع مع التقسيم، فقد جمع الرسول -ﷺ- الشراكة في قوله "ثلاث" ثم أخذ يقسم هذه الثلاث في (الماء – الكلأ – النار) وهذا التقسيم جعل المعنى أكثر استيفاء، وحسن التقسيم وإن كان محسنًا معنويًا يعود تأثيره في المقام الأول على المعنى من حيث تجليته وإيضاحه، فإنه لا ينكر دوره المؤثر على الصياغة الأسلوبية للألفاظ، وتعاونه الواضح مع موسيقى الألفاظ والعبارات في إضفاء نغم رائع على كلمات وعبارات الحديث الشريف.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، راجعته واعتنت به الأستاذة/ نجوى عباس، مؤسسة المختار للنشر والطباعة، القاهرة ٢٠٠٨م، ص(٢٣٣).

(٢) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص(٤٨).

ولا يخفي ذلك النسق العجيب والترتيب البديع حيث بدأ النبي الكريم -ﷺ- بذكر الماء، ثم اتبعه بالكلأ، ثم أردف ذلك بالحديث عن النار.

فترتيب الجمل على هذه الشاكلة قد توحي بالتدرج في الشراكة حيث أخبر أولًا عن "الماء" ،وبما ذكر بعده تكتمل الحياة، فكمال حياة الإنسان بعد الماء بما يتطلبه الماء من نار وكلأ؛ لذا كانت البداية به، فهو الأساس والقاعدة التي ينبني عليها ما بعده؛ ولذا فقد أتم هذا البيان النبوي الرفيع بجمعه بين حسن الابتداء ومراعة الاستهلال حيث ناسب ابتداؤه مقصوده(١).

وقد تضمن كلامه (-ﷺ-)هذا دعوة منه إلى صحابته والناس أجمعين للحرص على تنفيذ هذا الأمر، فقد حثهم بأسلوب يتسم باللطف والرحمة ، ومجانبة الأمر الصريح، حيث عرضها في تركيب بين لهم من خلاله قيمة هذا الأمر، مما كان له أكبر الأثر في تمكين وتثبيت هذه الأمور في نفوس السامعين، وقد أشاعت الجمل الخبرية الاسمية جوًا من الهدوء والسكينة في الحديث كله، وكان التعبير بها في هذا المقام أولى من التعبير بالجملة الفعلية؛ وذلك لأن القصد من سوقها هنا هو إثبات تلك الحقائق وبيان دوامها إلى أن تقوم الساعة.

(١) بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي، ج(٤) ص(١٣٤)، مكتبة الآداب، ١٩٩٩م.

النموذج الثالث

حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر؛ ليقطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله يوم القيامة أمنعك فضلي كما منعت فضل مالم تعمل يداك»(١).

معنى الحديث:

تدعو الشريعة الإسلامية إلى المحافظة على حقوق الآخرين، وعدم الأنانية، والجشع في البيع والشراء، ومن منع ما زاد على حاجته عن الآخرين، فهو يستحق الطرد من رحمة الله يوم القيامة، لذا حذر الرسول الكريم -ﷺ- المسلمين وأنذرهم من السخط والعذاب الأليم لثلاثة أنواع من عناصر الإفساد والتخريب في المجتمعات التي يروع فيها الآمنون، فهؤلاء جزاؤهم جزاء أليم، لا يكلمهم الله ولا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، حديث رقم (٧٤٤٦)، وقد ورد الحديث الشريف برواية أخرى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلًا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه، وهو على غير ذلك، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف» وزاد في رواية أخرى: «ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل ثم قال هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:٧٧] أخرجه مسلم حديث (١٠٨)، وأخرجه البخاري في "كتاب المساقاة" باب إثم من منع ابن السبيل من الماء، حديث(٢٣٥٨)، وأخرجه ابن ماجه في "كتاب التجارات" باب ما جاء في كراهية الإيمان في الشراء والبيع، حديث رقم (٢٢٠٧).

ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وقد جمعهم النبي الكريم في ثلاثة أصناف أولهم: رجل حلف على سلعة وباع آخرته بدنياه، واشترى بعهد الله ثمنًا قليلًا، ورجل أقسم كاذبًا على سلعته بعد العصر، وغرر بالمشتري وخدعه؛ لأجل أن يزاد له في المال والعرض الزائل، ورجل لديه فضل ماء زائد عن حاجته، فمنعه عمن يحتاج إليه، هؤلاء هم الذين يتبرأ منهم الله -عز وجل- ويخرجهم من معيته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

التحليل البلاغي:

استهلال رائع بدأ به الرسول -ﷺ- هديه الشريف بأسلوب التوشيع[1]، حيث قدم المسند "ثلاثة" على المسند إليه "لا يكلمهم الله" إذ أصل الكلام: من يكذب في بيعه، ومن يحلف كذبًا، ومن يمنع فضل مائه، ثلاثة لا يكلمهم الله....، والسبب في هذا التقديم هو التشويق لذكر المسند إليه ، حتى إذا ما جاء المسند إليه تمكن في النفس فضل تمكن، فهو أسلوب يحقق للمتلقي الترقب، والتيقظ به، والاستشراف إلى الخبر الملقى على الأذهان، وفيه أيضًا حث للسامعين على الاهتمام بالخبر، وأخذه مأخذ الجد، ووجوب الالتزام بما ورد به، وقوله "ثلاثة" هنا نكرة، والذي سوغ الابتداء بها[2]، هو الوصف المحذوف، أي: من أهل النار، وهو عدد لا يراد به الحصر، بدليل أن مجموع من يدخل في هذا الوعيد في الحديث وغيره في الروايات

(١) (وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين ، أحدهما معطوف على الأخر) الإيضاح مع البغية : ٣٤٧ ، وهذا التعريف فيه شيء من عدم الدقة ، لأن التوشيع قد يأتي في أول الكلام وفي وسطه، وقد يكون في الجمع، ينظر : تعليق الشيخ عبد المتعال الصعيدي على بغية الإيضاح : هامش ص ٣٤٧ ، وينظر: مدخل إلى البلاغة العربية، ص(١٢٩).

(٢) من مسوغات الابتداء بالنكرة، أن تكون موصوفة لفظًا أو تقديرًا أو معنى، مغني اللبيب، ج(١) ص(٦٥٠).

الأخرى تسعة أصناف[١]، فالتنصيص على العدد لا ينافي الزائد، فالذي ذكره من الوعيد لا ينحصر في الثلاثة[٢].

وفي قوله «لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم» جمهور المفسرين على أنه لا يكلمهم كلامًا ينفعهم ويسرهم ويرضى عنهم، ولا ينظر إليهم: أي لا ينظر إليهم نظرًا خاصًا، بل يعرض عنهم، فلا ينظر إليهم نظر رحمة ولطف، وإنما النظر العام، فالله ينظر إلى كل شيء سبحانه، ورواية «لا يزكيهم»، أي: لا يطهرهم من الدنس، ولا يثني عليهم خيرًا.

وفي قوله: «لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم» كناية عن صفة الإعراض عنهم، والاستهانة بهم، وعدم الرضى عنهم والإحسان إليهم ، والجملتان كناية عن غضب الله – عز وجل– وإشارة إلى حرمانهم من رحمته[٣]، ولا خلاف في أن الكناية أبلغ من التصريح، ففي التصوير بالكناية قول ببرهان، مما يؤكد المعنى ويجليه، فهي "الوسيلة الوحيدة التي تيسر للمرء أن يقول كل شيء، وأن يعبر عن كل ما يجول في خاطره، فيها تتم القدرة على التعبير المهذب، والموحي في الوقت نفسه، وفيها مراعاة الأدب في النفوس[٤].

(١) جاء غيرهم في أدلة أخرى كما في سورة آل عمران (٧٧)، البقرة (١٧٤)، فالوعيد في هذه الأحاديث جاء مثله من الوعيد في كتاب الله –عز وجل–.

(٢) عمدة القارئ، ج(١٠) ص(٢٠٣)، وانظر: التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي، ج(١) ص(٩٧٤).

(٣) سبل السلام، ج(٦) ص(٤٥٦)، شرح بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تح/ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض، ط أولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

(٤) البلاغة الكناية ومباحث البديع، د/ أحمد الفادي شحاتة، ص(٥٠)، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ص(١)، ١٩٧٦م.

والصورة الكنائية هنا عرضت المعنى بما يلائم مقام الترهيب، حيث عرضته في صورة مخيفة، تشمئز منها النفس السوية، التي يؤرقها ويقض مضجعها، أن لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم بعطفه وعدله ورحمته، فعدم الكلام يستلزم عدم العطف والشفقة والرحمة، كل تلك المعاني وغيرها أشار إليها التعبير بواسطة الكناية.

وقد عطف قوله "ولا ينظر إليهم" على قوله "لا يكلمهم الله"، وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى، كما أن المناسبة بينهما قوية، ولا يوجد بينهما مانع من العطف ، إذ إنهما اشتركا في أن كلًا منهما تحذيٌ وتوجيهٌ وإرشادٌ من رسول الله إلى تجنب الأعمال السيئة، وكذلك المسند إليه فيهما واحد، وهو الضمير العائد على الثلاثة، «وهذه المناسبة بين الجمل ضرورية لصحة نسق الكلام وتلاؤمه، وكلما كان الامتزاج بين الجملتين أشد تلاؤمًا، كانت الواو أكثر تمكنًا، وأحكم إصابة[1].

وبعد هذا التشويق وتلك الإثارة بذكر "الثلاثة" عن طريق الإجمال، بدأ النبي الكريم بالتفصيل والشرح ، فقد جمعهم في قوله: "ثلاثة" ، ثم قسمهم إلى أصناف عدة منها: «رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب»، قوله: "رجل" بدل من "ثلاثة" أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أحدهم "رجل" ، وتخصيصه -ﷺ- بهذا الوصف "رجل" ؛ لأن الخطاب غالبًا يكون للرجال، ولا يخفى أن النساء مقصودة بهذا الأمر أيضًا، وإنما ذكر رجل تغليبًا.

فهذا رجل حلف على سلعته كذبًا، وغرر بالمشتري؛ ليزيد من قيمتها، واشترى بيمين الله ثمنًا قليلًا، وكأنه أخذ كنزًا ثمينًا، ولكن العاقبة وخيمة ، نتيجة تجرئه على

(١) دلالات التراكيب، محمد أبو موسى، ص(٢٨٥).

الله – والعياذ بالله– ومما زاد من بشاعة الموقف مجيء لفظة "سلعة" نكرة للدلالة على العموم والتنويع، وكأنه اتخذ سبلًا عدة للتحايل للكسب الحرام بطرق مختلفة ووسائل متعددة.

وفي قوله "كاذب" بصيغة اسم الفاعل للدلالة على الثبوت والدوام ، وأن هذه الصفة أصبحت دأبه، وأن حاله دائمًا الكذب ليستحل ما حرمه الله –عز وجل–.

والثاني: «رجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم».

هذا الرجل الذي تجرأ على الله، واستخدم اليمين في غير موضعها، وفي قوله: "حلف على يمين كاذبة" المقصود باليمين هنا: القسم، وهو توثيق كلام غير ثابت المضمون بذكر أحد أسماء الله –عز وجل– ، أو ذكر صفة من صفاته، بصياغة مخصوصة[1].

وقد وصف الرسول الكريم اليمين بالكاذبة أي: حلف يمينًا متعمدًا الكذب فيه، فالحالف هو الكاذب، وليس اليمين، وإنما وصفها النبي -ﷺ- بذلك على سبيل المجاز العقلي، لعلاقة المفعولية، وبلاغة المجاز في بيان مدى استهانة ذلك الرجل باليمين ، وتجرئه على الله، بالإضافة لإظهار بشاعة فعله وتقبيحه والتنفير منه، وفي قوله: "كاذبة" احتراس؛ لئلا يتوهم أنه حلف هذا اليمين وهو ناسي أو بالخطأ، وإنما هو عامد متعمد، فهذا الاحتراس، طلبه المعنى، فاكتساه اللفظ، وبدونه يوهم الكلام خلاف المراد.

(١) الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، مصطفى الخن وآخرون، (٩/٣)، ط الثامنة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

وتخصيص وقت العصر في قوله: "بعد العصر"، وفي رواية: " ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:٧٧].

وفي الروايتين حدد النبي -ﷺ- وقت "بعد العصر" لشرف ذلك الوقت، يقول ابن حجر نقلًا عن الخطابي: «خص وقت العصر بتعظيم الإثم فيه، وإن كانت اليمين الفاجرة محرمة في كل وقت؛ لأن الله عظم شأن هذا التوقيت بأن جعل الملائكة تجتمع فيه، وهو وقت ختام الأعمال، والأمور بخواتيمها، فغلظت العقوبة فيه؛ لئلا يقدم عليها تجرؤًا، فإن من تجرأ عليها فيه اعتادها في غيره، وكان السلف لا يحلفون بعد العصر»[(١)].

وبهذا يكون هذا الرجل ارتكب أمرين عظيمين: الحلف بالله، والكذب في قيمة السلعة[(٢)]، فالخواتيم هي المرجوة، وإن كانت اليمين الفاجرة محرمة في كل وقت[(٣)].

ولأن السوق تنفق وتغلق في هذا الوقت، فيريد أن يبيع سلعته، فيروجها الحلف الكاذب الذي يدر عليه أجر الدنيا في مقابل غضب الله وسخطه.

وفي رواية «والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا» أكد كلامه باليمين بقوله: «والله الذي لا إله غيره» بطريق القصر، قصر صفة على موصوف، ولام التوكيد، و(قد) التي للتحقيق، وبناء الفعل للمجهول "أعطيت" كلها مؤكدات استخدمها ليروج لسلعته دون النظر للعاقبة.

(١) فتح الباري، ج(٢٠) ص(٢٥٣).
(٢) سبل السلام، ج(٢٠) ص(٢٥٣).
(٣) عمدة القاري، ج(١٠) ص(٢٠٥).

ثم أكد كلامه أيضًا بطريق الكناية في قوله: "كذا وكذا"، ثم دلل الرسول بالآية الكريمة لبيان فظاعة وبشاعة ما قام به هذا الرجل وبيان عقوبته يوم القيامة.

ثم تأتي الجملة التعليلية الموضحة لعاقبة هذا الرجل وبيان سبب فعله هذا الأمر الفظيع، وهو الحلف كاذبًا بقوله -ﷺ- : «ليقطع بها مال امرئ مسلم»، فعل كل ذلك من أجل المال الزائل والدنيا الفانية، وصورها الرسول الكريم من خلال لوحة تصويرية رائعة عن طريق الاستعارة؛ حيث شبه مال المسلم بعضو من أعضاء الإنسان، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بلازم من لوازمه، وهو قوله: "يقتطع" على سبيل الاستعارة المكنية.

وبلاغة هذه الاستعارة تبدو في أنها «أشارت إلى أن هذا الحق جزء حي متماسك كالجسد من مال امرئ مسلم، وأنه حِل لهذا المسلم، وأن حاله كحال كل ماله، ومن انتزعه كأنما قطعه»(١).

واختيار لفظة "يقتطع" بصيغة الافتعال التي تدل على احتفال ذلك التاجر المخادع بهذا القطع، وأنه جرد نفسه لذلك، ونشط وقام وقعد له، وهذه خليقة من أسوأ خلائق البشر(٢).

واختيار لفظة "امرئ" دون غيرها؛ وذلك لتوبيخ من يقوم بهذا الفعل، فكلمة "امرئ" مشتقة من المروءة، وهي «كمال الرجولية، مَرُوء الرجل يَمْرُوء مُرُوءة، فهو مَريء على فعيل، وتَمرَّأ على تَفَعّل صار ذا مروءة ... والمروءة الإنسانية»(٣).

(١) شرح احاديث من صحيح مسلم، ج(١) ص(١٢٩).
(٢) شرح أحاديث من صحيح مسلم، ج(١) ص(١٢٩).
(٣) لسان العرب، "مرء".

كما أن في إضافة "مال" إلى لفظة "امرئ" لإفادة التخصيص تعميقًا للصلة وتوثيقًا للارتباط بين المال وصاحبه، فهو مال خالص ثابت لازم واجب لهذا المرء، إلى غير ذلك من المعاني الثرية التي تختزنها تلك الكلمة الجامعة(١).

وقوله "مسلم" تتميم يفيد التوبيخ لمن يسيء المعاملة مع المسلمين، ولكن ليس القصد فقط التحذير من سوء معاملة المسلمين فقط ، وإنما يدخل فيه غير المسلمين أيضًا كالذمي وغيرهم، فقد كفل لهم الإسلام حرية العقيدة طالما يلتزمون بالأصول والثوابت، فدماؤهم وأموالهم وأعراضهم حرام، لا يقترب إليها أحد، ولكن خص المسلم بالذكر إذ كيف يستحل مسلم مال أخيه المسلم بهذه الطريقة؟ ولأن حق المسلم أولى بالرعاية من غيره، فالاعتداء عليه أقبح، وأكل ماله أعظم، ولأن «تخصيص المسلم لكونهم المخاطبين وعامة المتعاملين في الشريعة، لأن غير المسلم بخلافه، بل حكمه حكمه»(٢).

يقول الإمام النووي: «وأما الذمي فاقتطاع حقه حرام، ولكن ليس يلزم أن تكون فيه هذه العقوبة العظيمة»(٣).

وثالث الثلاثة هو: "رجل منع فضل ماء، فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل مالم تعمل يداك"، وفي رواية أخرى "رجل كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه من ابن السبيل".

(١) الخصائص البلاغية في حديث النبي عن صور الإيذاء بين المسلمين دراسة في الصحيحين، للباحث/ حسن الشحات عبد الله الصعيدي، رسالة دكتوراه بإيتاي البارود، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

(٢) شرح النووي على مسلم، ج(١) ص(٢٥٨).

(٣) السابق نفسه، ج(١) ص(١٣٣).

هذا الصنف الثالث هو أشدهم حرصًا على الحياة الدنيا الزائلة، فقد بخل بما زاد عن حاجته، وحرم الناس من صنائع المعروف، فكان جزاؤه: "اليوم أمنعك فضلي.... بذاك".

وقد بين الرسول الكريم بشاعة هذا الصنف من خلال الكناية التي أكدت المعنى مصحوبًا بالدليل، فقوله: «منع فضل ماء» كناية عن البخل والشح، وفيه دلالة على شدة حرصه على الدنيا حتى إنه يبخل بما لا يحتاجه على من هو في شدة الحاجة إليه، وبذلك بلغ مبلغًا عظيمًا في البخل وحب الذات.

وفي رواية «كان له فضل ماء بالطريق» قدم المسند: "له"؛ للدلالة على اختصاصه بالماء وتأكيدًا لوجوده عنده، وفي إضافة الصفة للموصوف في قوله: "فضل ماء" دلالة على أن الماء زائد عن حاجته، والتعبير بقوله "ماء" دلالة على حاجة الناس لأقل الأشياء وأبسطها لبقائهم على الحياة ومدى حاجتهم لما في يد ذلك الشحيح، ومع ذلك بخل به، لذا جاء بها النبي الكريم "ماء" نكرة للنوعية؛ ليشمل نوعًا مخصوصاً من الماء يحتاج إليه ابن السبيل.

وفي تقييده للماء بكونه في "بالطريق" ؛ وذلك لإبراز بشاعة الفعل والتنفير منه وبيان قبحه.

ثم يأتي رد الله –سبحانه وتعالى– على تلك الأفعال المخزية بقول رسولنا الكريم «اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل مالم تعمل يداك»، نلحظ تكرار كلمة "فضل" أكثر من مرة ، وذلك للتنبيه على أن التعامل بالفضل قوام الحياة، وسر مرضاة رب العالمين، وكيف يمن الله على عباده بالفضل في يوم لن ينجو منه أحد، إلا إذا عامله الله –عز وجل– بالفضل.

والملاحظ في الأصناف الثلاثة التي ذكرها النبي -ﷺ- تكرار لفظة "رجل" وتنكيرها؛ وذلك للتحقير من شأنهم ، كما نلاحظ تعدد روايات الحديث الشريف، وأنها

جاءت فيها أصناف أخرى غير المذكورة في هذا الحديث، ووجه الجمع بين هؤلاء الثلاثة هو شدة الحرص على الدنيا والاستخفاف بذات الله – عز وجل–، فهؤلاء الثلاثة أحقاء ببغض الله –عز وجل– إياهم، وسخطه عليهم، فهم – من حيث الحرص على الدنيا والتكالب عليها– صنف واحد، وهذا هو الذي يسوغ نظم هؤلاء الثلاثة في سلك واحد، وتحت حكم واحد، وهو بغض الله لهم وبعد إحسانه وعطفه عليهم، وهذا هو التآلف الذي ألفه شريف النظم، وهو كما ترى رابط معنوي يعني براعة في إمساك المعنى بالمعنى وامتداد معنى إلى معنى(١).

وكان المعتاد أن يأتي جزاء هؤلاء الثلاثة عقب ذكر جرائرهم، لكن خالف البيان النبوي ذلك، وقدم الجزاء مع تأخر رتبته عن الأفعال، للتفخيم من شأنه والتهويل من أمر مرتكبيه، ولو أخر الجزاء عن الأفعال لم يقع هذا الموقع(٢).

ويلاحظ أن الجملة المشتملة على التعليل في هذا الحديث الشريف، تحمل نفس دلالة الجملة السابقة لها، لكنها أعم منها، لذا يمكن القول بأنها تعميم بعد تخصيص؛ لأن المنفق سلعته بالكذب أعم من الذي يحلف لقد أعطى(٣).

ثم لننظر إلى الطريقة التي عرض بها النبي الكريم حديثه الشريف بداية من التشويق المستفاد من قوله: ثلاثة ، ثم ذكر الأصناف الثلاثة بداية بمن حلف على سلعة كاذبًا، ثم صاحب اليمين الكاذبة، وهذا أشمل ممن سبقه، ثم ختم هديه الشريف بمن منع فضل الماء الزائد عن حاجته، فبدأ بالأقل إلى الأعلى، وهذا ما يعرف بالترقي.

(١) شرح أحاديث من صحيح مسلم، أبو موسى، ج(١) ص(٣١٤).
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، ج(١) ص(٩٧٤).
(٣) سبل السلام، ج(٦) ص(٤٥٧).

فقد بدأ البيان النبوي رحلة المعنى في تصاعد وارتقاء، وفي كل مرتقى من تلك المرتقيات تتصاعد الدلالة، حتى يتم بناء المعنى كما قصده النبي -ﷺ- ، ومع كل مرتقى من مرتقيات المعنى يزداد شوق المتلقي ركضًا وراء المعنى، ففي حركة المعنى تلك ترقب وتطلع من المتلقي نحو النهاية، وفي ذلك من البلاغة مالا يخفى، فكلما زاد الشوق وطال التتبع من المتلقي لرحلة المعنى، استقر المعنى في الذهن، وأثر في النفس، وأتى كالري بعد الظمأ، وفي ذلك الأسلوب ما يؤكد فقه النبي -ﷺ- بأسرار النفوس وطبائعها.

يذكر الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى قولًا في تعدد واختلاف روايات كل الأحاديث التي استهلها النبي -ﷺ- بقوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة» قائلًا بقيت جملة «ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم» ثابتة في كل الروايات، وتكرار تلك الجملة « فيه إشارة إلى تكرار هذا الحدث في الناس، والتحذير من شيوع هذه البلايا والخطايا، لأن أسبابها كثيرة في واقع حياة الناس»[1].

(١) شرح أحاديث من صحيح مسلم، د/ محمد أبو موسى، ج(١) ص(٨٤).

الـخـاتـمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.....

فقد كان هذا بحثًا تحت عنوان (من أسرار البلاغة النبوية في أحاديث الشراكة المجتمعية)، وقد خلصت في نهايته إلى عدد من النتائج منها:

– استخدام الرسول الجملة التوضيحية والتعليلية، كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله – عز وجل– لذلك كان لها دور بارز في بث القيم والأخلاق الكريمة، والبعد عن الأعمال التي لا ترضي الله ورسوله كما في حديث (إياكم والجلوس على الطرقات...).

– التمهيد لمضمون الكلام، والاشتمال على عناصر التشويق، وجذب الانتباه لها: مثل الاستفهام – التقديم والتأخير – التنكير والابتداء به – التوشيع .... وكلها أساليب تحمل بين جنباتها الكثير من النصح والإرشاد والتلطف مع المخاطب، كما في حديث العامل .....

– بلاغة ترتيب الجمل في الحديث حيث جاءت على نسق عجيب، توخى التدرج في المعنى على النحو الذي تم بيانه، كما في حديث (الناس شركاء في ثلاثة .....)

– جمع البيان النبوي بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال وحسن الخاتمة، حيث افتتح الحديث بذكر الموضوع، ثم ذكر بعده أمورًا ترتبط به ارتباطًا وثيقًا، فناسب الابتداء المقصود.

– هيمنة التشبيه على التصوير، فقد قام بدور بالغ الأثر في أداء المعنى، والتأثير في المتلقين، بمراعاة خصوصيات ودقائق في الصياغة، من مثل حذف الوجهوالأداة، واستمداد المشبهات بها من الطبيعة الساكنة لضمان بقائه وديمومته، كما في حديث السفينة .....

– إن معظم أخباره -ﷺ- التي وردت في تلك الدراسة، غالبًا ما كانت من الضرب الابتدائي، إذ معظم ما أتى به -ﷺ- كان المخاطبون به خاليي الذهن منه، إذ هي تعاليم دين جديد، ومع هذا فإن الرسول -ﷺ- كان يؤكد بعض هذه الأخبار تنزيلًا لهم منزلة المتردد الشاك، حتى تثبت الفكرة في أذهانهم ويقررها.

– إن معظم الأساليب الإنشائية التي وردت في الأحاديث التي تضمنها البحث، كان النهي مستوليًا عليها، ويليه الاستفهام، ثم الأمر، ثم النداء؛ وذلك لأن النبي -ﷺ- كان يحرص دائمًا على جذب أسماع الصحابة للخبر الذي سيلقيه، وقد كثر مجيء الأمر والنهي قبل التعليل، لمعنى النصح والإرشاد للمخاطب، وهو ما يظهر مدى حرصه على مصلحة أمته وهدايتهم إلى ما فيه منفعتهم في الدنيا والآخرة، وأنه رحيم بكل مؤمن، وله ناصح أمين.

– مجيء أسلوب الشرط في مقامي الترغيب والترهيب؛ لأن النفس الإنسانية يحركها الثواب والعقاب، وهما متحققان في الشرط، بالإضافة إلى مجيء فعل الشرط للمسند في جملة الجواب مضارعًا، يعرض الحدث في صورة يستحضرها المتلقي، وكأنه يسمع ويرى، فذلك من شأن المضارع.

هذا وبالله التوفيق

فهرس المصادر والمراجع

١- أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية، د/ عامر بن عبد الله الشبيني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢- أسرار البلاغة، الإمام/ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر، القاهرة، ط(٢)، ١٩٧٦م.

٣- أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين، دراسة نحوية تداولية، إعداد/ ناغش عيدة، ط/٢٠١٢م.

٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط(٨)، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

٥- أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي، د/ نور الدين عتر، مركز بحوث السنة والسيرة، العدد السابع، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٦- الإيجاز والإطناب في الحديث النبوي الشريف دراسة تحليلية تطبيقية في صحيح البخاري، للباحثة/ درية يسن عبد الرحمن أحمد، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٧- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط الثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٨- البرهان في تجويد القرآن، محمد الصادق قمحاوي، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٩- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق/ علي ابن محمد العمران، مطبعة دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، بدون.

١٠- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ١٩٩٩م.

١١ـ البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، د/ محمد إبراهيم شادي، الشركة الإسلامية للإنتاج والتوزيع، ط أولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

١٢-البلاغة العالية، الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، المكتبة السلفية، بدون.

١٣- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط(٢)، ١٩٨٨م.

١٤- بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف، أميمة بدر الدين، ٢٠١٠م، جامعة دمشق.

١٥- البنية الإيقاعية في الأسلوب القرآني، د/ عبد السلام الراغب، نسخة مخطوطة على الموقع الإلكتروني:

https://islamsyria.com/sito/shaw_library/٢٩٣

١٦- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٤٥٥هـ، /المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، ط ١٩٢٦م.

١٧- تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري أبو نصر إسماعيل حماد، تحقيق: د/ محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ط أولى، ٢٠٠٩م.

١٨- التركيب الصوتي في قصيدة (أنشودة المطر)، د/ قاسم البرسيم، ١٩٩٣م، مجلة آفاق عربية.

١٩- التصوير البياني، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط(٣)، ١٩٩٣م.

٢٠- التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٢١- التيسير بشرح الجامع الصغير، العلامة عبد الرؤوف المناوي مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٢- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، أبو بكر القرطبي، تحقيق: د/ عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٢٣- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله -ﷺ- وسننه وأيامه والمعروف باسم "صحيح البخاري" أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: ٢٥٦هـ، تحقيق/ محب الدين الخطيب، ومحمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط الأولى، ١٤٠٠هـ.

٢٤- الجني الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤١٣هـ.

٢٥- الحديث النبوي (بلاغته - مصطلحه - طرقه)، د/ محمد الصباغ، ط المكتب الإسلامي، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٢٦- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، كمال عز الدين، ط دار إقرأ، أولى، ١٩٨٤م.

٢٧- الخصائص لابن جني، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط رابعة، بدون.

٢٨- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعني، ط(١)، ١٩٩٢م.

٢٩- خصائص الحروف العربية ومعانيها، د/ حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.

٣٠- دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د/ محمد لقمان الأعظمي النحوي، مكتبة العيبكان، الرياض، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٣١- دراسة الصوت اللغوي، د/ أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط(٣)، القاهرة، ١٩٨٥م.

٣٢- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية، ١٩٨٧م.

٣٣- دلائل الإعجاز الإمام عبد القاهر، تحقيق/ محمود شاكر، ط الخانجي - بالقاهرة، ط خامسة، ٢٠٠٤م.

٣٤- رصف المباني في شرح حروف المعاني، المالقي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، بدون تاريخ.

٣٥- سبل السلام شرح بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، ط أولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٣٦- السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، الرافعي، تحقيق/ أبو عبد الرحمن البحيري، وائل بن حافظ بن خلف، دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا، ط(١)، بدون.

٣٧- سنن أبي داود، تحقيق: الشيخ/ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بدون تاريخ.

٣٨- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، ط(٢)، ١٩٧٥م.

٣٩- شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، ط(١)، وهبة، ١٤٢١هـ، ٢٠١٠م.

٤٠- شرح أحاديث مسلم، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط أولى، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

٤١- صحيح البخاري بشرح ابن بطال لأبي الحسين بن علي بن خلف ابن عبد الملك بن بطال القرطبي، تحقيق/ أبو تميم ياسر ابن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية – الرياض، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ط(٢).

٤٢- صحيح مسلم بشرح النووي، تأليف/ الحافظ أبي زكريا يحيى ابن شرف النووي، دار الثقافة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ، ١٩٢٩م.

٤٣- الطراز، يحيى ابن حمزة العلوي، ط المعارف – الرياض، ١٩٨٠م.

٤٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد، ط(١)، دار الجيل، ط(٥)، ١٩٨١م.

٤٥- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون.

٤٦- علم اللغة العام (الأصوات)، د/ بسام بركة، منشورات مركز الإتحاد القومي، ط أولى، بدون.

٤٧_ فتح الباري شرح صحيح البخاري / ابن حجر أبي الفضل العسقلاني / تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي / ومحب الدين الخطيب وعبد العزيز عبد الله بن باز / دار المعرفة / بيروت / ١٣٧٩

٤٨_فتح المنعم شرح / صحيح مسلم / للدكتور موسى شاهين لاشين / الناشر / دار الشروق / ١٤٢٣/٢٠٠٢/ ط: ١.

٤٩_ فقه اللغة وسر العربية للثعالبي / تحقيق / عبدالرازق المهدي / إحياء التراث العربي / ط/١ / ٢٠٠٢م .

٥٠- الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، مصطفى الخن وآخرون، ط الثامنة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٥١_ الفوائد المنتقاه من حديث (مثل القائم على حدود الله) بقلم عبد الآخر جماد الغنيمي / ط/ أولى / ١٤١٩/ ١٩٩٩م .

٥٢_ فيض القدير / شرح الجامع الصغير / للعلامة المناوي / مكتبة / مصر / ط/ ثانية / ١٤٢٤/ ٢٠٠٣م .

٥٣- القرآن والصورة البيانية، د/ عبد القادر حسين، الناشر عالم الكتاب، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق/ محمد محمد الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية – بيروت، ١٩٩٥م.

٥٤- لسان العرب، تأليف العلامة أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور المصري، دار صادر – بيروت.

٥٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/ أبو الفتح الجزري، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ١٤٠٥هـ.

٥٦- محاضرات في علم المعاني، د/ عبد الهادي نصر، د/ عبد العزيز مخلوف، ط الشاهد، ٢٠٠٠م.

٥٧- مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني، علم البيان، علم البديع، أ.د/ يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، عمان، ط أولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م.

٥٨- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القري، دار الفكر - بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٥٩- مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير، أبو أحمد معتز أحمد عبد الفتاح، ط الأولى، بدون.

٦٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، ت(٧٧٠)، دار المعارف، ط الثانية، تحقيق/ د/ عبد العظيم الشناوي.

٦١- المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد، حققه وخرج أحاديثه/ حمدي عبد الحميد السلفي، الناشر، مكتبة ابن تيمية، بدون.

٦٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لأبن هشام الأنصاري، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠٠٧م.

٦٣- مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط أولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٦٤- المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، تحقيق/ محمد سيد كيلاني، ط دار المعرفة، بيروت - لبنان، بدون.

٦٥- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق/ عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٦٦- النحو الوافي، لعباس حسن، ط. دار المعارف - مصر، ط الثالثة، ١٩٧٤م.

٦٧- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د/ تامر سلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا اللاذقية، ط أولى، ١٩٨٣م.

٦٨- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، ط الثامنة، ٢٠٠٣م.

٦٩- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية - القاهرة، ٢٠٠٢م.

٧٠- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البيجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الرسائل والبحوث العلمية:

٧١- التضمين بين حروف الجر في صحيح البخاري دراسة نحوية دلالية، للباحثة/ إيناس شعبان محمد درباس، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية – بغزة، كلية الآداب.

٧٢- الجملة التعليلية في الحديث النبوي في صحيح البخاري مواقعها وأسرارها البلاغية ، د: مستورعبد الفضيل عبد الحميد يعقوب، رسالة العالمية الدكتوراه إشراف الأستاذ الدكتور أحمد سعد ناجي، والأستاذ الدكتور شعبان عبدالله عيد، ١٤٤١/٢٠٢٠م .

٧٣- الحوار في الحديث النبوي دراسة تحليلية بلاغية لأحاديث مختارة، علوة بنت عابد عبد الله الحساني، رسالة ماجستير، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٩م.

٧٤- الخصائص البلاغية في حديث النبي-ﷺ- عن صور الإيذاء بين المسلمين دراسة في الصحيحين، رسالة دكتوراه كلية ايتاي البارود، للباحث. د/ حسن الشحات عبد الله الصعيدي، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

٧٥- الخصائص البلاغية للقيد بـ"من" الشرطية في الصحيحين، د/ حمدي علي أبو المحاسن البهوي، مجلة اللغة العربية – المنصورة، العدد السابع والثلاثون، ٢٠١٨م.

٧٦- الاستقصاء في المثل النبوي دراسة بلاغية، د/ أحمد إبراهيم محمد علي، المجلد الثاني، العدد الثامن والثلاثون، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.